



جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

مجلة العلوم الإنسانية

خفاف

مجلة علمية محكمة



العدد الثالث - 2019

صفاف

مجلة علمية محكمة

العدد الثالث - 2019

مجلة فصلية علمية ومحكمة تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة القاضي عياض - مراكش - المغرب

المدير : عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية
عبد الرحيم بنعلي

المنسق العام : جمال راشق

اللجنة العلمية

السيدات والسادة الأساتذة:

GRAVARI BARBAS Maria, IREST, Université Paris 1 Panthéon-Sorbonne, France, **ELLOUMI Mohamed**, INRAT, Tunisie, **LAOUNA Abdellah**, CERGé, Université Mohamed V Rabat, **DEBARBIEUX Bernard**, Université de Genève, Suisse, **NAVARRO PALAZON Julio**, Escuela de Estudios Arabes des Granada, CSIC, Espagne, **SKOUNTI Ahmed**, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, Rabat, **GIRAUT Frédéric**, Département de Géographie, Université de Genève, Suisse, **HERNANDEZ ARMENTEROS Salvador**, Universidad de Granada, Espagne, **BOUBRIK Rahal**, Département de Sociologie, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Mohamed V de Rabat, **TOZY Mohamed**, UMRVIP et Sciences po, Aix en Provence, France, **PULVAR Olivier**, Université Antilles-Guyane, Centre de Recherche sur les Pouvoirs Locaux dans la Caraïbe – CNRS UMR 8053, **HILLALI Mimoun**, Institut Supérieur International de Tourisme, Tanger, Maroc, **PERALDI Michel**, directeur de recherche au CNRS et Centre Jacques Berque pour le développement des Sciences Sociales à Rabat (Maroc), **BOUMAZA Nadir**, Université Pierre MENDES France- Grenoble 2, **LANDEL Pierre – Antoine**, CERMOSEM, UJF, Mirabel – France, **PECQUEUR Bernard**, Institut de Géographie Alpine, PACTE (UMR CNRS 5194 – Université J. Fourier, Grenoble – France).

لجنة التحرير

السيدات والسادة الأساتذة

ثريا بركان- جمال راشق- خديجة الزاهي- سعيد بوجروف
عبد الرحيم بنعلي - محمد موهوب

عناوين التواصل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صندوق بريد 3737

أمرشيش - 40000 مراكش - المغرب

الهاتف : 00212524302742 الفاكس : 00212524302039

البريد الإلكتروني : revueflm@gmail.com الموقع : http://www.flm.uca.ma.ac

الايداع القانوني: 2018PE0010

ردم: 2605-6410

لوحة الغلاف للفنان ماحي بنين

تعبر المقالات عن آراء أصحابها فقط

صفاء

مجلة العلوم الإنسانية

مجلة 'صفاء' كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش

شروط النشر

- مجلة ضفاف مجلة علمية محكمة تعنى بنشر الأبحاث والأعمال التي تدخل في مجال العلوم الإنسانية.
- مجلة فصلية.
- تنشر المجلة مقالات ودراسات وأبحاثاً أصلية لم يسبق نشرها ولا تقديمها للنشر.
- تخضع الأعمال المقترحة للنشر لشروط البحث العلمي المتعارف عليها من حيث التوثيق وذكر المصادر والمراجع المعتمدة.
- تعبر الأبحاث المنشورة بالمجلة عن آراء أصحابها.
- تقدم الأبحاث في نسخة مطبوعة ونسخة إلكترونية.
- تلتزم المقالات بالمعايير التقنية للنشر بالمجلة، فتكتب المقالات العربية بخط 14 Sakal majalla والمقالات بالحرف اللاتيني بخط 11 Times New Roman.
- تكتب الهوامش أسفل الصفحة بخط 10 Times New Roman.
- ينبغي ألا تزيد صفحات البحث عن 20 صفحة..
- يذكر الباحث اسمه واسم بنية البحث والجامعة-المؤسسة التي ينتمي إليها في الصفحة الأولى.
- يقدم الباحث ملخصاً لبحثه مستقلاً عن المقال.
- يكتب ملخص للبحث بلغة غير اللغة التي كتب بها.
- تخضع المقالات والبحوث المقدمة للمجلة للتحكيم، ويلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي يقترحها المحكمون في أجل أقصاه 15 يوماً بعد توصله بها.
- تحتفظ المجلة بحقوقها في عدم نشر أي بحث لا يستجيب لشروطها.
- لا ترد الأبحاث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- تحتفظ المجلة بحقوق التأليف وإعادة النشر الورقي أو الإلكتروني للمقالات المنشورة بها.
- المقالات المقدمة للنشر لا يجب أن تنتهك حقوق مؤلفين أو ملكية أطراف آخرين.



مجلة العلوم الإنسانية

مجلة علمية محكمة

العدد الثالث - 2019

إصدار كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة القاضي عياض - مراكش - المغرب

شكر

تتقدم هيئة تحرير مجلة "خفاف" للعلوم الإنسانية
بخالص تشكراتها لكل من ساهم في إغناء هذا العدد،
كما توجه شكرها الجزيل للأساتذة الأجلاء الذين لم
يتروا في قراءة المقالات وتقييمها وتعيمها.

هيئة التحرير

فهرس المحتويات

9.....	كلمة العدد
	عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية
11.....	تقديم
	عبد اللطيف البرنيسي ومحمد الخداري
13.....	أنهار المغرب القديم من خلال المصادر القديمة
	عبد اللطيف البرنيسي
23.....	توطین المدن المغربية التاريخية وعلاقتها بالنهر: محاولة في الجغرافيا التاريخية
	أحمد الحلاسي
47.....	النهر في الاستراتيجية العسكرية السعدية : واد المخازن أنموذجا
	توفيق محمد القبائي
65.....	المدن الواحية : تأثير التعمير ونمط العيش على البيئة بتزنيت
	محمد مسكيت وخديجة الزاهي
85.....	مظاهر الهشاشة بالمجال الواحي المغربي، حالة واحات إقليم كلميم
	لحسن بلالي، صلاح الدين طبلاط، عبد القادر اسباعي، خلف الغالبي
103.....	التقارب الثقافي الاسلامي الألماني "جوته أنموذجا"
	مولاي الصديق سلاح الحق

121.....	الذاكرة الجمعية الاستهلاكية دراسة في سوسيلوجية الاستهلاك والتبضع بالمساحات التجارية الكبرى بمراكش
	يوسف زكار
145.....	الفلسفة والتقليد السحري بالأندلس : المجريطي ومدرسته
	محمد البوغالي
175.....	الاقتضاء والحساب المنطقي للدلالة عند فريجه
	سعيد النكر
201.....	شلاير ماخروإشكالية بناء قانون للثيولوجيا
	حمادي هباد
227.....	الأحكام المسبقة والوعي التاريخي عند هانز غيورغ غادامر
	أحمد الفرحان

كلمة العدد

يسعدنا أن نقدم لجمهور القراء الأعزاء العدد الثالث من مجلة ضفاف التي تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، وهو عدد حافل بالمقالات العلمية الغنية والمتميزة، والتي حرصت هيئة تحرير المجلة ولجنة قراءتها على أن تعمل ما في وسعها لكي تخرج المجلة لعموم الباحثين من طلبة وأساتذة ومهتمين في أحسن حلة .

ونغتتم فرصة صدور هذا العدد، لنعرب عن تقديرنا البالغ للمجهودات التي تبذلها لجنة التحرير مشكورة، في مختلف مراحل إعداد وإخراج هذا المشروع العلمي الطموح سواء تعلق الأمر باختيار وانتقاء المادة العلمية، أو عمليات طباعة ونشر كتيبه، مقدرين حرصها على الأصالة العلمية، واحترام ضوابط النشر.

إن النهج الأكاديمي المتبع، والخط التحريري الملتزم به، لمن شأنهما أن يكسبا هذه المجلة، ومن خلالها المؤسسة التي تنتهي إليها، حظوة كبيرة بين جبهة الباحثين، وأن يرقيا بها إلى مصاف الإصدارات العلمية المتميزة ليس على الصعيد الوطني والعربي فحسب بل على المستوى الدولي، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المكانة التي تحظى بها جامعة القاضي عياض إفريقيا ودوليا. ويعود الفضل في كل ذلك إلى تضافر جهود الأساتذة والإداريين والتقنيين، فلهم منا جميعا جليل الشكر والثناء.

ويطيب لي أن أوجه تقديري كذلك للسيدات والسادة الأساتذة الباحثين الذين أغنوا هذا العدد بمساهماتهم العلمية القيمة، سواء المنتمين إلى كليتنا أو العاملين بمؤسسات جامعية أخرى، موجها الدعوة للجميع من أجل تجديد المشاركة وإغناء الأعداد المقبلة بدراساتهم وأبحاثهم، كما لا تفوتني الفرصة دون أن أوجه طلبتنا الباحثين الشباب في سلك الدكتوراه من أجل الانخراط الجدي في الإنتاج العلمي، وبلورة مشاريعهم البحثية في مقالات، تستجيب للمتطلبات العلمية والفنية التي يسعى هذا المنبر إلى نشرها.

لقد حرصنا أشد ما يكون الحرص على أن يصدر هذا العدد كسابقه، مستوفيا للشروط والضوابط العلمية والفنية، ولما بمختلف التخصصات المعرفية في العلوم الإنسانية. ومن جهة ثانية أن تكون محتويات هذا العدد وفقا للمسار الذي رسمناه جميعا للمجلة باعتبارها منبرا للقراءات والمقاربات المنهجية والدراسات الجادة التي يقترحها مختلف الباحثين المتخصصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومما زادنا سرورا وغبطة كون

الأبحاث التي يتضمنها هذا العدد، سواء المقدمة باللغة العربية أو الفرنسية، تطرح مجموعة من القضايا المعرفية والمنهجية، كما تطرح بعض المقاربات الاستمولوجية، إضافة إلى المقترحات العلمية والتطبيقية في ميادين متعددة تعنى بالإنسان والمجال الطبيعي بكل أنماطه الاقتصادية والاجتماعية والبيئية. وهي مساهمات علمية رصينة لمختصين بارزين وباحثين شباب في الجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والفلسفة.

أملنا أن يجد القارئ الكريم ما يشبع نهمه العلمي ويغذي زاده المعرفي من خلال المواد المنشورة، وسعينا كذلك أن نكون قد أسهمنا في مواصلة بلورة الهدف النبيل الذي تنشده مجلتنا، حتى تكون منبرا علميا جديرا بالتقدير، يجد فيها الباحثون ضالهم، ويتحقق من خلالها الإشعاع الكبير لمؤسستنا ولجامعتنا.

والله ولي التوفيق

عميد الكلية

ذ. عبد الرحيم بنعلي

تقديم

لعب الماء دورا مهما في نشوء الحضارات وفي تطور المجتمعات الإنسانية، وبالرجوع إلى اهتمامات الباحثين بموضوع الماء نلاحظ أن ظهور الإيكولوجيا كحقل معرفي سمح، ومنذ مؤسسيه الأوائل أمثال (Jean- Baptiste Lamarck - Alexander Von Humboldt)، لباحثين من حقول معرفية مختلفة بالوقوف عند أهمية الماء ومعالجة قضاياها انطلاقا من اعتباره عنصر اندماج الإنسان في بيئته.

أفضت هذه الدراسات والأبحاث إلى اعتبار الماء عنصرا فعالا وبنويا في العلاقات المجتمعية والإقليمية والدولية، وضروريا في بناء السياسات العمومية. تعامل المجتمع المغربي، كباقي المجتمعات، عبر حقه التاريخية مع عنصر الماء في حل كثير من قضاياها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

يصعب جدا تناول موضوع "الماء" في يوم دراسي أو في لقاء علمي واحد، بل لا بد من تنظيم حلقات ولقاءات دراسية متتالية. وارتأت شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة القاضي عياض ومجموعة البحث: "الماء : التاريخ والتراث"، المنتمية لمختبر "المغرب والحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط: التاريخ - التراث- الموارد"، ومختبر "الجبال الأطلسية : المجالات الترابية والتنمية المستدامة"، أن يكون أول موضوع في سلسلة هذه الحلقات هو "النهر في تاريخ المغرب" من خلال عقد ندوة وطنية يومي 30- 31 ماي 2013 م برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش، من خلال محورين أساسيين:

- المحور الأول : النهر والاستقرار، الذي ركز على دور الأنهار في استقطاب واستقرار

الإنسان وفي تطور التجمعات السكنية والمدن.

- المحور الثاني: النهر والأنشطة الاقتصادية، الذي عالج ارتباط بعض جوانب النشاط

الاقتصادي بالأنهار.

لم تقتصر مداخلات الزملاء السادة الأساتذة المشاركين في الندوة على المحورين المذكورين، بل شملت مواضيع أخرى عالجت موضوع النهر من خلال مقاربات مختلفة في أربع جلسات :

- أسطوغرافية النهر بالمغرب.

- النهر والتجمعات السكانية.

- النهر : الاقتصاد والمجتمع.

- النهر بالمغرب: تاريخ وتراث.

وننشر في مجلة ضفاف للعلوم الإنسانية بعض مداخلات الندوة التي توصلت بها هيئة تحرير المجلة، والبعض الآخر سبق أنه نشره السادة الأساتذة في مجلات متخصصة.

ذ. عبد اللطيف لبرنسي

ذ. محمد الخداري

الفلسفة والتقليد السحري بالأندلس: المجريطي ومدرسته

محمد البوغالي

جامعة القاضي عياض، مراكش

Résumé

AL-MAJRITI est un point culminant dans l'histoire des sciences en Andalousie, et également la personnalité ayant le plus fait objet de controverses. Né à Majrit (l'actuelle Madrid) et mort dans sa ville natale vers la fin du 4^{ème} siècle de l'Hégire (11^{ème} s.). Après avoir assimilé les Sciences Religieuses basiques, il émigra en Orient pour faire des études de Philosophie, de Mathématiques et de Chimie pour lesquelles sa contribution fut notoire. Il retourna ensuite en Andalousie, y poursuivit ses études scientifiques et devint ainsi le savant le plus éminent de son époque en astronomie astrologie et en Mathématiques.

Cet article traite la problématique de la duplicité Sciences et Magie (ou Sciences occultes) chez al-Majriti et les successeurs qui constituent son école. On essaiera de comprendre le statut des Sciences Magiques (ou Occultes) dans le cadre du classement propre élaboré par al-Majriti dans ses deux livres¹. Cet article discute également les thèses qui ont tenté d'expliquer cette antinomie en sacrifiant le scientifique ou le magique chez al-Majriti tout en insistant sur la notion de MAGIE chez al-Majriti. Cette dernière englobe l'ensemble des éléments de la nature qui interviennent de manière régulière et causale, faisant donc des lois [physiques], et accorde une place privilégiée à la Magie en général dans le système cognitif au moyen âge.

السحر كل ما سحر العقول وانقادت إليه النفوس من جميع الأقوال

والأعمال بمعنى التعجب والانقياد والإصغاء والاستحسان وهو مما

يصعب على العقل إدراكه ويستتر عن الغبي أسبابه

المجريطي

مقدمة

جزم صاعد الأندلسي (ت 462هـ/ 1070م) بخلو اسبانيا القوطية من الحكمة والعلوم قبل الفتح الإسلامي وعطالتها عن ذلك، وتبعاً لهذه الشهادة فإنه من غير المجدي البحث عن جذور ثقافية عالمية أو مكتوبة في أندلس ما قبل الفتح الإسلامي، يقول: «وأما الأندلس فكان فيها أيضاً بعد تغلب بني أمية جماعة عنيت بطلب الفلسفة ونالت أجزاء كثيرة منها وكانت

1 "غاية الحكيم" و "رتبة الحكيم" «La Classe du Philosophe» et «La Finalité du Philosophe»

الأندلس قبل ذلك في الزمان القديم خالية من العلم لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به إلا أنه يوجد فيها طلسمات قديمة في مواضع مختلفة وقع الإجماع على أنها من عمل ملوك رومية إذ كانت الأندلس منتظمة بمملكته ولم تزل على ذلك عاطلة من الحكمة إلى أن افتتحها المسلمون»¹.

1. وضعية العلوم السرية بالأندلس (الكيمياء والتنجيم)

يفيدنا النص السابق في استخلاص نتيجة خلو إسبانيا القوطية من التقاليد العلمية قبل الإسلام²، ولكننا نعثر - علاوة على ذلك- على شهادة ذات قيمة كبيرة بخصوص ما يشير إليه من وجود "طلسمات قديمة" في مواضع مختلفة، وهي إشارة تبين أن هناك تقليدا سحريا ملكيا، أي بإشراف حكام الروم وبعناية منهم مما يدل على أننا أمام انشغالات سحرية رسمية، ولكننا لن نولي أهمية لهذه التقاليد السحرية إلا إذا أثبتت الدراسات صلتها بالتقليد العلمي العربي بعد الفتح الإسلامي. وفي نفس الصدد نعثر على إشارة هامة عند أحد المؤرخين العرب، وهو ابن الكردبوس (ت 580 هـ)، وهي إشارة توضح شيئا من الغموض الوارد في الشهادة السابقة، وهي احتواء كنيسة طليطلة غداة الفتح الإسلامي على مائدة النبي سليمان عليه السلام، وعلى امرأة سحرية تظهر الدنيا كلها في صفحتها وأنها «مدبرة من أخلط أحجار وعقاقير منقوشة بخط يوناني جليل [...] وطلسمات عجيبة محكمة، وكتابا في الصنعة الكبرى [الخيمياء] وعقاقيرها وإكسيرها»³.

من المؤسف أننا لا نملك تفاصيل دقيقة عن التبني الرسمي للكيمياء القديمة من قبل الكنسية القوطية، وبإمكاننا الافتراض أن ذلك كان نتيجة لنمو تيار استسراي *initiatiq* داخل الكنيسة الكاثوليكية يجعل من بعض العلوم والمعارف مادة خاصة بفئة من رجال الدين المسيحي دون عمومهم، أي أن الكيمياء في إسبانيا القوطية كانت علما مضمونا به على غير أهله. وبهذا نستطيع افتراض وجود تقليد سحري بإشراف من سلطة الملوك القوط ورجال الكنيسة أيضا.

1 صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، نشرة الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912، ص 62. إلا أن ابن جليل يقدم لنا في كتابه طبقات الأطباء والحكماء من ضمن من ينقل عنهم "إيسيدور الإشبيلي" أسقف إشبيلية، وهو صاحب مؤلفات كثيرة عاش من سنة 570 إلى سنة 636 م ولا نعرف طبيعة الانشغالات المعرفية التي تناولها بالبحث والتأليف، علما بأن كتابه الأهم هو "الأصول" أو "الاشتقاق" *Etymologiae*. انظر: ابن جليل، طبقات الأطباء والحكماء، ط. 2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985. تحقيق فؤاد سيد، ص. 41. ولا يستقيم ما يرد في الصفحة دون العودة إلى توضيحات أوردها محقق الكتاب في مقدمة تحقيقه.

2 أبرزت دراسات المستشرقين الإسبان هذا غياب تقليد علمي سابق على دخول الإسلام للأندلس. انظر: بالنسبة، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ص. 1. ينظر أيضا ما ينقله سالم يفوت في هذا الصدد عن بعض المستشرقين الإسبان: ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1976، ص. 257.

3 ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، قطعة حققها ونشرها أحمد مختار عبادي في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 13، 1965-1966، ص. 48، 49.

وإذا انتقلنا إلى فترات زمنية لاحقة، ألفينا نتفا من المعلومات المتفرقة لا تسعفنا في الحديث عن شكل من أشكال الحياة الفكرية في السنوات التي تلت الفتح الإسلامي، فعلى امتداد عصر الولاة لا نكاد نجد ظروفًا مواتية لأية انشغالات ثقافية أو فكرية. بل على العكس من ذلك ساهمت الخصومات والعداوات القبلية بين القيسية واليمينية وبين الشامية والمدنية في تأخير الانطلاق الثقافي بالأندلس¹.

ولكن هذا لا يعني خلو الجزيرة من أي انشغال ثقافي أو علمي، فقد قام التابعون² الذين دخلوا مع الفتح بنشر مادة ثقافية إسلامية، ولكنها كانت متعلقة بالقوانين والتشريعات العسكرية ذات الصلة الوثيقة بالجهاد الذي كان حدثًا معيشيًا في تلك الفترة. ومن بين القضايا التي استأثرت باهتمامهم قضية توزيع الغنائم والأراضي المفتوحة والمعاهدات العسكرية. وقد وضع التابعون أساسًا شرعية تعقد على ضوءها تلك المعاهدات³.

ولا حاجة للتأكيد على أن المشرق الإسلامي كان يعرف في الفترة نفسها تطورًا ثقافيًا مهمًا، ولكن للبيئة الأندلسية عذرها، فلم توفر للفاتحين ثقافة محلية يؤسسون عليها ثقافة جديدة مما حتم على الأندلسيين والمغاربة كذلك أن يقتاتوا ردحا من الزمن على الثقافة المشرقية، ليشقوا طريقهم بعد ذلك مستقلين عن تبعيتهم للمشرق. وقد ساهم في تخلف الريادة الثقافية للأندلس، تأخر الانفتاح على العلوم إلى حدود أواسط القرن الثالث الهجري. وهذا ما أوضحه صاعد الأندلسي بقوله إن أهل الأندلس لم يعنوا «من العلوم إلا بعلم الشريعة وعلم اللغة إلى أن توطد الملك فيها لبني أمية، وبعد عهد أهلها بالفتنة، فتحرك ذووا الفهم والهمم منهم بطلب العلوم وتنهوا لإثارة الحقائق»⁴.

لا نريد أن نتسرع في إصدار أحكام متعلقة بطبيعة الانشغالات الكيميائية والتنجمية بالأندلس، ولكن لا مفر لنا من الإقرار بأن جزءًا كبيرًا من هذا التراث قد دخل في البداية عن

1 بالنهاية، مرجع مذكور، ص. 1.

2 تذكر الروايات أن من بين الصحابة الذين دخلوا الأندلس صحابي صغير يدعى "المنذر". المقرئ، فنج الطيب، ج. 259/1. أما التابعون فتورد المصادر أسماء العديد منهم. ومن بينهم: حنش بن عبد الله الصنعاني (ت 100 هـ)، وعلي بن رباح البصري (ت ما بين 114 و 117 هـ) وأبو عبد الله حبان بن أبي جبلة القرشي (ت ما بين 122 و 125 هـ). ولمعرفة مزيد من التفاصيل حول التابعين الذين دخلوا الأندلس انظر: الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966، ص. 6.

3 محمود علي مكي، رواد الثقافة الدينية الأولى بالأندلس، ضمن مجلة البيئة، السنة الأولى، العدد 6، أكتوبر 1962، ص. 55-57.

4 صاعد، مرجع مذكور، ص. 62.

طريق شخصيات كلامية (وخصوصا متكلمي الشيعة وبعض المعتزلة¹) أو شخصيات تجمع بين الكلام والتصوف. ومن المعروف أن نشأة هذه العلوم قد تمت في المشرق في بيئات عرفانية، سواء بالنسبة للكيمياء التي عرفت تاريخيا بأصولها السحرية الشرقية واليونانية الواضحة، أو بالنسبة للتنجيم الذي يعد من العلوم الموروثة عن الغنوص الحراني القديم وبأصداء بعيدة من التأثير الكلداني، وهذا الأمر ليس مستغربا لأن تطور السحر والتنجيم والكيمياء لم يتم إلا في بيئات وأوساط عرفانية وهرمسية أو متأثرة بها².

إن التأثير العرفاني القوي في المشرق على تطور علمي الكيمياء والتنجيم يدفعنا إلى تتبع بعض قنوات الاتصال بين البيئتين المشرقية والمغربية. ومن المفيد هنا أن ننصت لبعض ما تقوله كتب الطبقات الأندلسية³ في هذا الصدد، وأن نولي أهمية قصوى لرحلات الأندلسيين إلى المشرق؛ فأتناء رحلاتهم كانوا يحتكون برجال الفرق والمذاهب الذين تأثروا بالدعوات الشيعية التي كانت تملأ أرجاء العالم الإسلامي، وفي مقدمتها المذهب الإسماعيلي الذي كان ينشط بقوة بدءا من إفريقية ومرورا بمصر وسوريا واليمن والحجاز. وذلك بفعل التشجيع الذي لقيه دعاة الإسماعيلية بإشراف من الخلفاء الفاطميين. وكانت رحلات الأندلسيين إما خروجاً لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم بالعراق وفارس⁴، ولكنهم في كل الأحوال كانوا مضطرين للتعريض على مصر وإفريقية، ومن المعروف أنهما كانا معقلين إسماعيليين منذ أواخر القرن الثالث الهجري، ثم لم يلبث أولئك الأندلسيون أن رجعوا إلى

1 تبدو الانشغالات الكلامية لممارسي العلوم السرية مبررة خصوصا بالنسبة لمتكلمي الشيعة الذين ينتمون إلى تقليد عرفاني يحتل فيه الغيب مرتبة هامة خصوصا ما يعرف بـ "الجفر" الذي يعد مدونة ضخمة للمغيبات، ومعلوم أن الاطلاع على الغيب هو الهدف الأساسي للتنجيم. أما الخيمياء فهي ترد في بعض النصوص العرفانية الشيعية باعتبارها أخت النبوة. انظر: بيار لوري، هنري كوربان والخيمياء الروحانية، ترجمة خيرى شعراوي، مجلة المحجة، العدد 7، صيف 2003-1423. ص. 216 - 217.

2 تشير المعلومات التي بين أيدينا إلى أن الفترة الهيلينية هي فترة ازدهار التنجيم، وهي الفترة التي اختلط فيها التراث اليوناني بتراث الأمم الشرقية بفضل فتوحات الاسكندر الأكبر. ويقال إن أول منجم كلداني سيصل إلى اليونان سنة 330 ق م، وطيلة القرون الخمسة التي تفصل وصوله عن ظهور أعمال بطليموس الضخمة سنة 140م، تمت صياغة التقاليد التنجيمية وتم تهذيب تقنياتها. أما كيف تم تطور التنجيم وماهي المراحل التي قطعها على وجه الدقة حتى انتهى إلى الصورة التي صار إليها فهو أمر لا نعرف عنه إلا القليل. فبحسب "و. كتابيش" W. Knappich فإن التنجيم هو "النتيجة النموذجية للتقاطع الحاصل بين العلم التنجيمي الشرقي وحكمة المعابد الشرقية وعلم الفلك البابلي والرياضيات والفلسفة الطبيعية اليونانية". انظر :

Suzel FuzeauBraesch, *L'astrologie*, PUF, Paris, 1992, p. 37.

3 من بين كتب الطبقات الأندلسية: ابن حبان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس. الحميدي: جنوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، الضبي: بغية الملتبس في رجال أهل الأندلس، النباهي: تاريخ قضاة الأندلس.

4 انظر: محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية (دار الفكر 1963) ص. 94، وقارن: أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها منذ الفتح حتى الخلافة (دمشق، 1972) ص. 177.

الأندلس متأثرين بالمناخ العرفاني الإسماعيلي الذي لم يكن مهيمنا على إفريقية وحدها وإنما على باقي أرجاء العالم الإسلامي¹.

وتجدر الإشارة إلى أن من الأمور التي تغفل عنها العديد من الدراسات حول تاريخ العلوم، أن الكيمياء كانت في فترة من فترات تطورها انشغالا صوفيا وهذا ما يجعل التمييز بين الممارستين الكيميائية والصوفية والفصل بينهما أمرا في غاية الصعوبة؛ إذ أثبتت الأبحاث الحديثة أن الشق العلمي في الكيمياء كان استعارة للجانب الصوفي، إذ هما يعبران عن الشيء نفسه ولكن باعتبارين مختلفين، كلاهما ينشد التحول نحو الكمال، ولا فرق بين أن يكون الكمال صوفيا رمزيا (تحول من العامة إلى الخاصة عبر التطهير) أو أن يكون الكمال معدنيا ماديا (تحول من الخسيس إلى الثمين، من المعدن الرديء إلى حالة الذهب عبر الصهر).

وغالبا ما تصف المصادر الأندلسية ممارسي التنجيم والكيمياء بأوصاف من قبيل "السري" أو "المستتر"، ولا يمكن أن تكون هذه الأوصاف فارغة من الدلالة، فهي تعيد إلى أذهاننا شخصيات أخرى ألصقت بها أوصاف مشابهة، كوصف "الباطني" الذي التصق باسم ابن مسرة الجبلي. إن وصف "باطني" في هذا السياق لا يمكن أن يكون مجرد توصيف اعتباطي، بل هو إحالة في منتهى الخطورة وإدانة مباشرة وقوية من تلك المصادر لكل النشاط العلمي الذي عرف عن ابن مسرة باعتباره نشاطا معاديا للسلطة السياسية وللإيديولوجية السنية السائدة. وبالمثل يمكن اعتبار وصف "السري" الذي التصق في المصادر الأندلسية بأبرز شخصية عنت بالعلوم زمن المستنصر (302-366 هـ) هو عبد الله بن عبيد الله، ويذكر عنه صاعد أنه كان فقها ناسكا إماما في علوم اللغة والنحو وأنه كان «ينسب إليه العلم بصناعة الكيمياء»².

لا يكاد يسلم أحد من المشتغلين بالتنجيم من الطعن في عقيدته، حتى وإن كان الجانب العلمي المختص بالمحتوى الدقيق والتجريبي واضحا في ممارسته. ويمكن أن نستحضر في هذا الصدد ما يرويه المقري أن أشهر من عرف بالتنجيم ابن زيد الأسقف القرطبي (عاش زمن المستنصر 302-366 هـ)، ويذكر أن له تصانيف جيدة، وأنه كان مرتبطا بالمستنصر بن الناصر، ويذكر من مؤلفاته كتاب "تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان"، وفيه تفصيل لمنازل القمر. والمقري لا يخفي إعجابه بالكتاب وأنه مكتوب بحس تعليمي يقرب فيه العلم إلى

1 يرى محمد كامل حسين أن من بين مظاهر تأثير الفكر الإسماعيلي في الحياة العقلية بالعالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري وما بعده: تشيع ابن حوقل، وتفلسف الفارابي حول اللوح والقلم الذي يكاد يطابق كلام الدعاة الإسماعيليين، وفكر ابن سينا الذي كان والده إسماعيليا، ورسائل إخوان الصفا التي كانت تعبيراً خالصاً عن الفلسفة الإسماعيلية. مرجع مذكور، ص. 92.

2 صاعد، مرجع مذكور، ص 68.

الجمهور بمقاصد حسنة، ولكنه سرعان ما يضيف أن «أهل بلده كانوا ينسبونه للزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن فكان لا يظهر شيئاً مما يصنف»¹. إن كون ابن زيد القرطبي "لا يظهر شيئاً مما يصنف" هو سبب مباشر لاتهامه بالزندقة، ووصف "السري" يشير إلى الشيء نفسه، إلى الإخفاء والتكتم اللذين كانا مرفوضين، وهذا يساعد في فهم بعض من محنة الكثير من ممارسي الكيمياء والتنجيم بالأندلس.

نحن أمام مفارقة، أو لنقل إننا أمام مقدمة لا صلة لها بالنتيجة، فالامتداح العلمي والتنويه بالجهود الجبارة في التأليف والتقريب لأصول العلم والكتابة فيه بأسلوب يوافق مستوى طلاب العلم، كل هذا يذيل بحكم قاس وهو تهمة الزندقة والتشهير من قبل أهل بلده. بهذا المعنى يصح لنا أن نجزم أنه بإزاء المكانة المتميزة عند الخليفة أو البلاط وربما عند دائرة المشتغلين بالعلم، كانت للرجل سمعة جيدة وأصداء طيبة، لكن بموازاة ذلك كانت للمشتغل بالتنجيم سمعة سيئة في أوساط العامة إلى درجة أنه كان يخفي ما يكتب، وبهذا نكون أمام كتب خفية وشخصيات سرية تتداول في خوف ما تكتبه. ومع ذلك فلا ينبغي أن يغيب عن بالنا معطى آخر وهو المضمون التنجيمي البعيد عن الانشغالات العلمية الفلكية وهو من الأسباب التي قد يكون لها كبير الأثر على إلحاق الأذى بابن زيد القرطبي، خصوصاً وأن الموضوع متعلق بأحكام مسبقة وبتصورات قبلية تحملها العامة بشكل جاهز كلما أشير إلى المنجمين.

إننا أمام موقف انشطاري، فمجهودات الخلفاء الجبارة تشجع على الإقبال على التنجيم والكيمياء، ولكن الصورة النمطية التي يحملها العامة عن هذين العلمين كانت على العكس من ذلك محبطة تماماً. وعلى كل حال، فقد استمر انتشار الكيمياء والتنجيم مصبوغين بالصبغة السحرية طيلة القرن الرابع الهجري بفضل جهود عبد الرحمان الثالث الملقب بالناصر (300-350هـ) وابنه الحكم الثاني الملقب بالمستنصر بالله (350-366هـ) ويستفاد مما نقله صاعد أن المستنصر قد جمع وحده من الكتب المصنفة في شتى العلوم ما كان يضاهي ما جمعه ملوك بني العباس في زمن طويل «فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم»²، كما يقول عنه الحميدي أنه «كان حسن السيرة، جامعاً للعلوم، محباً لها مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في أنواع ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأعلى الأثمان»³. لقد كانت هذه

1 المقرئ، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دبت، الجزء الثالث، ص. 186.

2 صاعد، مرجع مذكور، ص. 66.

3 الحميدي، مرجع مذكور، ص. 13.

المجتهودات الجبارة التي بذلها الناصر والمستنصر بالله تنبئ بأن تحولا كبيرا في حجم المشتغلين بالعلوم على وشك أن يتحقق.

2. مسلمة بن أحمد المجريطي (338-398هـ/950-1007م)

يمكن اعتبار أبي القاسم مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي النقطة الأبرز في تاريخ العلم بالأندلس، والشخصية الأكثر إثارة للجدل، والأكثر تعبيرا عن الإشكال الذي طرحناه سابقا والمتعلق بالازدواجية بين العلمي والسحري؛ إذ تذكر كتب الطبقات عنه أنه ولد بمجريط (مدريد حاليا) وتوفي في أواخر القرن الرابع الهجري. بل إن مسألة ولادته بمدريد غير مؤكدة، وإنما المؤكد أنه عاش بها أيام الحكم المستنصر (302-366هـ/961-976م) وأنه توفي سنة 1007م. وهناك من يذكر أن أصله من قرطبة إلا أنه لقب بالمجريطي لإقامته الطويلة بمدريد¹. وبعد أن أتقن المجريطي العلوم النقلية، رحل إلى المشرق ليدرس الفلسفة والرياضيات والكيمياء، وساهم مساهمة فعالة في هذه المجالات المعرفية، وعاد بعد ذلك إلى الأندلس مواصلا دراسته العلمية حتى أصبح أعلم أهل زمانه في علم الفلك وعلوم الرياضيات.

وتتفق المصادر أنه قد شغف بعلوم الإغريق المترجمة إلى العربية والممزوجة بالفلسفة، والتي يمكن أن نشير إليها بما عرف بعلوم الأوائل. ولكن المصادر تضطرب في ما تنسبه إليه من انشغالات متناقضة ذات مظهرين: مظهر علمي ذي أثر عقلائي ومظهر سري باطني مغرق في العرفانية. ومن بين الشيوخ الذين تحتفظ لنا المصادر بأسمائهم شخصيتان علميتان أولهما أبو أيوب عبد الغفار بن محمد وكان يشغل بعلم الهندسة، بل كان أحد المهرة فيه، وقد أكد صاعد الأندلسي تتلمذ المجريطي على يديه²، و ثانيهما أبو بكر بن عيسى وكان له هو الآخر اهتمام بعلوم العدد والهندسة وعلم النجوم، بل إنه كان يحترف تدريس هذه العلوم أيام الحكم الثاني³.

لنسجل أننا لا نعرف بشكل دقيق تاريخ رحلته إلى المشرق ولا تفاصيل المعرفة التي حصلها قبل رحلته، ولا وجهته بشكل دقيق في المشرق، ولا أي نوع من الشيوخ صادف والتقى، ودرس عليهم الفلسفة والفلك والرياضيات والكيمياء، باستثناء أستاذ واحد في الهندسة نستطيع أن نجزم فعلا أنه درسه وهو أبو أيوب عبد الغفار بن محمد (من أعلام القرن

1 انظر سيمون الحايك، تعربت وتغربت أو نقل الحضارة العربية إلى الغرب، بيروت، المطبعة البولسية، 1987، ص. 372.

2 صاعد، مرجع مذكور، ص. 67.

3 انظر سالم يفوت: ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، ص. 26، 1 نقلا عن:

J . Millas Valicrosa, *Estudios sobre de la Cencia espanola*, Barcelona, 1949, p.27.

ونحن لا نعرف على وجه الدقة من أين استقى J . Millas Valicrosa هذه المعلومة.

الرابع). كل هذه المعلومات غائبة عنا ولا يمكن ملء فجواتها إلا بالتخمين وإطلاق العنان للافتراضات. ويبدو أن جهداً مضنياً ينتظرنا في البحث عن شيوخ تلك الحقبة وافتراض تتلمذ المجريطي على أيديهم.

1.2 المظهر العلمي

كان المجريطي مشهوراً بشكل خاص في علم الفلك بفضل عمله الجيد، وهو في الأساس مراجعة للجداول الفلكية الفارسية من خلال تسلسل تاريخي عربي، كما يتضمن شرحاً لـ *Panisperium* لبطليموس ومؤلفاً عن الاسطرلاب. وقد ترجم المؤلفان الأخيران إلى اللاتينية مبكراً ولقيا نجاحاً كبيراً¹. بهذا المعنى يرد اسم مسلمة المجريطي باعتباره مؤسساً لمدرسة فلكية بالأندلس، وأحد المهتمين بدراسة كتاب "المجسطي" لبطليموس، والمؤلفين في أرصاد الكواكب، ومن ثم اختصر تقويم البتاني (306 هـ - 918 م) وعني بتقويم محمد بن موسى الخوارزمي (توفي بعد 232 هـ أي بعد 847 م). ويبدو مما يذكره ابن حزم أنه كان للمجريطي تقويم خاص به، فقد امتدح تقويمه الفلكي بكلام حسن واعتبر أنه لم يُؤلف في التقاويم مثله. هكذا يؤكد ابن حزم على الطابع العلمي المتميز للمجريطي في علم العدد والحساب ويذكر أنه سمع شهادات من علماء ثقات في العلم والدين، وهي شهادات تؤكد علو كعبه، ومن ذلك «أنه لم يُؤلف في الأندلس في الأزياج مثل زيغ مسلمة [أي المجريطي] وزيغ ابن السمع وهما من أهل بلدنا»².

ويذكر أحد الباحثين في العلوم عند العرب أنه وصلتنا من أعمال المجريطي الفلكية كتابه في نقد جدول الخوارزمي، ولا نعتقد أنه يقصد الأصل العربي فما وصلنا هو عبارة عن كتاب ترجمه إلى اللاتينية "أديلار الباثي" *Adelard of Bath*³ وطبعه "سوتير" طبعة ممتازة في كوبنهاجن عام 1914⁴.

1 جورج قنواطي: الخيمياء العربية، ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، الجزء الثالث، ص. 1114.

2 المقرئ، مرجع مذكور، المجلد الثالث، ص. 176.

3 أديلارد الباثي *Adelard of Bath* من مفكري الإنكليز الذين عرفوا في القرن الثاني عشر في نطاق الفلسفة المدرسية. درس في فرنسا وعلم فيها وزار عدداً من البلدان منها سورية وفلسطين وقضى بقية حياته في باث بإنكلترا حيث علم ولي العهد هنري الثاني. ويعدّ من رواد ترجمة المؤلفات العلمية العربية إلى اللاتينية ونشرها في بلاده وأوروبا الغربية. ومن ترجماته: كتاب المجسطي المختص بعلم الفلك لبطليموس وكتاب الجداول الفلكية للخوارزمي وكتاب المبادئ *Elements* لمؤسس علم الهندسة إقليدس. ومن أشهر مؤلفاته كتاب «مسائل الطبيعة» الذي اشتمل على ست وسبعين محاضرة هي مناقشات لكثير من العلوم مثل علم الفلك وعلم الحيوان والنبات والمناخ والطبيعة الإنسانية كان فيها متأثراً متأثراً بالعلوم العربية. انظر حيدر اسماعيل، الموسوعة العربية مجلد 1، ص. 752. <https://www.arab-ency.com/ar>.

4 انظر سيمون الحايك، مرجع مذكور، ص. 22.

وعلى هذا الأساس بإمكاننا أن نتحدث عن مدرسة فلكية متكاملة أسسها المجريطي وتتكون من تلامذة نبغوا في العلوم وتفرقوا في الأندلس كابن السمع (ت 426 هـ) وابن الصفار (ت 426 هـ) وأبو الحسن علي بن سليمان الزهراوي (القرن الخامس الهجري)، وابن الخياط (ت 447 هـ)، والكرماني (ت 458 هـ).

ويبدو أن الفضل في التطور العلمي الفلكي بالأندلس يرجع إلى كتاب محمد بن موسى الخوارزمي الذي ألفه أيام المأمون وفيه تم تأسيس تقويمه المعروف بالسند هند، وكان مستنده فيه هو كتاب السند الهند المشهور لكنه خالفه فيه في التعاديل والميل وبني تعاديله على مذهب الفرس وميل الشمس على مذهب بطليموس، لكن إسهام المجريطي تمثل في أنه صرف تاريخ الخوارزمي الفارسي إلى التاريخ العربي وبدأه من تاريخ الهجرة النبوية وألحق به زيادات وجداول جيدة، كما أنه ألف رسالة "الاسطرلاب"¹ وكتاب "ثمار العدد" أكمل به كتاب ثابت بن قرة، وغير ذلك من الكتب العلمية الفلكية التي لم يبق من أصولها العربية إلا القليل.

لقد دخل هذا المذهب الفلكي إلى الأندلس إذن بعد أواسط القرن الرابع الهجري حين اختصر المجريطي زيج/ تقويم محمد بن موسى الخوارزمي. وقد أصبح هذا المذهب الفلكي معروفا في الأندلس بفضل، بل ومتداولاً في التصانيف العبرية التي أشار إليها إبراهيم بن عزرا².

2.2 المظهر السحري

يذهب "لوكلير" Leclerc في كتابه "تاريخ الطب العربي" إلى أن المجريطي كان يشغل بصناعة الكيمياء، معتمداً في ذلك (أي لوكليرك) على مخطوطات في الصنعة وتحويل المعادن اطلع عليها في مكتبات أوروبية موقعة باسم المجريطي³. إن ما كتبه ابن خلدون عن المجريطي يؤكد بقوة اشتغاله بالصنعة، بل وبالسحر أيضاً، لكن قبل تفصيل ما يورده ابن خلدون في الموضوع، يهمننا أن نبدأ بما يذكره جورج قنوتي في موسوعة تاريخ العلوم عند العرب، فهو يذكر في اقتضاب شديد أن للمجريطي كتاب مهم اسمه رتبة الحكيم ومدخل التعليم وعمل في التنجيم اسمه غاية الحكيم، وقد ترجم كتاب غاية الحكيم إلى الإسبانية عام 1256 م بأمر من ألفونسو الحكيم ملك قشتالة وليون، ليترجم بعد ذلك إلى اللاتينية ليصبح بعد ذلك

1 صاعد، مرجع مذكور، ص. 69.

2 سيمون الحايك، مرجع سابق، ص. 22.

3 Leclerc (Lucien), *Histoire de la médecine arabe*, Rabat, 1980, T.I, p.422.

نقلا عن سالم يفتوت، ابن حزم والفكر الفلسفي، ص. 161.

مشهوراً باسم¹ PICATRIX. ويذكر "قنواتي" أنه قد اتضح فيما بعد خطأ نسبة الكتاب إلى المجريطي، ومستنده في ذلك أن النقد الداخلي للكتاب يبين أنه لا يمكن أن يكون قد وضع إلا بعد سنة 1009 م في حين أن المجريطي توفي سنة 1007 م².

بما أن المعلومة الأساسية هنا هي وضع الكتاب بعد سنة 1009 م بالضرورة، فقد كان على قنواتي أن يقف عندها قليلاً لحاجة القارئ إلى تعليل مناسب ليقنع بالأمر، لكن قنواتي لا يسوق تعليلاً البتة، كل ما يذكره هو شهرة الكتاب في أوروبا باسم PICATRIX ويبدو هذا واضحاً في نشرة هلموت ريتير HELLMUTRITTER والتي تحمل عنوان كتاب غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم THE PICATRIX.

ولكن قنواتي يعود ليعول على شهادة "هوليارد" بخصوص كتاب رتبة الحكيم، وفحوى هذه الشهادة أن المؤلف - سواء أكان المجريطي أم غيره- يعبر عن وجهة نظر خاصة حول الطريقة التي ينبغي بها تكوين طالب الخيمياء، وهذا يتطلب منه معرفة الرياضيات وكتب أقليدس وبطليموس والعلوم الطبيعية وأرسطو وأبولونيوس الطياني Apollonios of Tyana، وبعد ذلك يتوجب على الطالب أن يمتلك مهارة يدوية، وأن يتدرب على المراقبة الدقيقة، وأن يقوم بتأمل المواد الكيميائية والتفاعلات، محاولاً أن يتبع في أبحاثه قوانين الطبيعة كما يفعل الطبيب، فهو يشخص المرض ويصف العلاج، لكن التصرف يكون للطبيعة³.

ولكن بما أن كتاب رتبة الحكيم يتضمن تعليمات دقيقة وواضحة حول تصفية الذهب والفضة وتنقيته ليصبحا خاليين من كل الأدران العالقة بهما بطريقة أكسدة المعادن الموجودة مع الذهب في المزيج المنصهر، أو بوسائل أخرى؛ نظراً لهذا الاعتبار، فإن قنواتي يبدو مقتنعاً بما يذهب إليه هوليارد من أن مؤلف رتبة الحكيم كان يعرف العمل التطبيقي في المختبر. ويصف ثالثاً تحضير أكسيد الزئبق على قاعدة كمية⁴.

لا يشرح لنا قنواتي شيئاً عن القاعدة التي اعتمدها في نفي نسبة كتاب الرتبة عن المجريطي، اللهم إلا إشارة مهمة، وهي وإن كانت ذات مستند علمي كما تبدو في أصولها عند

1 من أصداء كتاب رتبة الحكيم في الآداب الأوروبية أن رابليه Rabelais يذكره في Pantagruel في معرض حياته عن الأب المحترم في الشيطان Picatrix رئيس الكلية الشيطانية في طليطلة، جورج قنواتي، مرجع مذكور، ص. 1114.

2 نفسه.

3 نفسه.

4 نفسه.

هوليارد، فإن قنواتي لم يزد شيئا على تلك الجملة التي أوردناها سابقا في إثبات دعواه. وهو ما حدا بنا إلى عدم إيلاء رأيه كبير أهمية في مسألة نسبة الكتاب. لقد تعامل قنواتي مع المسألة وكأنها أمر مفروغ منه عوض أن يعتبرها قابلة للمراجعة بحسب ما سيقود إليه البحث. لقد أثبت ابن خلدون نسبة كتاب الرتبة للمجريطي، وهي شهادة قوية لا يمكن إغفالها، كما أن حاجي خليفة¹ يذكر الكتاب منسوباً للمجريطي. أما الذين عنوا بمطالعة المخطوط من المعاصرين فقد وقفوا على صحة المعطيات التي أوردها ابن خلدون وحاجي خليفة وتطابقها مع النسخ الموجودة وخصوصاً نسخ دار الكتب المصرية².

إن ما يقصده قنواتي بالنقد الداخلي لكتاب الرتبة هو تضمن الكتاب معلومة حول بداية تأليفه وهي سنة 439 هـ، وأنه قد فرغ منه سنة 442 هـ، ويمكن اعتبار هذا خطأ من ناسخ الكتاب، وهو أمر محتمل جداً خصوصاً أنه يتعارض مع شواهد قوية تثبت نسبة الكتاب للمجريطي³.

على كل حال يشهد كل من درس الكتاب أن واضعه كان كيميائياً ممتازاً يعتمد المنهج التجريبي العملي المعتمد على الاختبار بخطواته، بدءاً من الملاحظة المتأنية الدقيقة والاستقراء والاستنتاج الصحيح، ويستشف ذلك من حديث المجريطي عن تجاربه وخصوصاً تجربة أكسيد الزئبق التي استفاد منها الكيميائيون المعاصرون⁴. مما يذكره في بداية الكتاب أن لكل غرض سبباً وأن السبب الذي دعاه لوضع الكتاب هو اعتقاده أن معاصريه يهيمون في الجهالة ويقرأون ما لا يفهمون وينشدون ما لا يفقهون، وقد بلغ بهم الغرور حداً توهّموا معه أنهم أدركوا نهاية العلم وأصبحوا في غنى عن قراءة كتب المتقدمين من الحكماء وعن فهم الفلسفة التي هي ضوء الإيمان. ولا يجوز لأي رجل أن يدعي العلم إذا لم يكن ملماً بالكيمياء. وطالب الكيمياء يجب أن تتوفر فيه شروط معينة لا ينجح بدونها، إذ يُلزمه أولاً في الرياضة بقراءة أقليدس وفي الفلك بقراءة المجسطي لبطليموس وفي العلوم الطبيعية بقراءة أرسطو أو ديموقريطس وأبولونيوس وفي المنطق بقراءة ترجمة الكندي لأرسطوطاليس⁵.

- 1 حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح وتعليق محمد شرف الدين بالتقايا ورفعت بليكة الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ت) ص. 823.
- 2 عبد الرحمن عبد الله الصراف، العالم المجريطي: جدلية الزمان والمكان، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، (جامعة بابل، عدد 24، كانون أول 2015، ص. 529).
- 3 نفسه، ص. 530.
- 4 نفسه، ص. 526. نقلاً عن علي عبد الله الدفاع، العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981، ص. 391.
- 5 ينقل سيمون الحايك هذه الفقرات من مقدمة مخطوط رتبة الحكيم للمجريطي. مرجع مذكور، ص. 372، 373.

بعد هذه المقدمة الفلسفية التي هي عبارة عن شروط مرتبطة بالمعرفة النظرية لطالب الكيمياء، ينتقل المجريطي إلى شروط أخرى بمثابة مبادئ أساسية للعلوم الطبيعية، ووفق هذه الشروط يشرع الطالب في ممارسة التجريب، وذلك بإجراء سلسلة من التجارب ومتابعة ما يجري للمواد الكيميائية وتفاعلاتها وملاحظة ذلك والتفكير فيه. وينطلق المجريطي من قاعدة أساسية وهي أن الطبيعة لها سلوك واحد لا يتغير وهي تعمل على نحو معين وواضح، وهذا يوجب على الطالب أن يقوم بتتبع الخطوات التي تعمل بها، وهو يعتبره خادما لها مثله في ذلك مثل الطبيب الذي يشخص الداء ويصف الدواء ولكن الطبيعة نفسها هي التي تقوم بالعمل.

ويرى الكثير من الباحثين أن كتاب رتبة الحكيم لا يختلف في ما يعرضه من معطيات عن تلك التي عرضها جابر بن حيان والرازي، وهما عالمان يكن لهما المجريطي احتراماً كبيراً، وينزلهما منزلة عالية. ويبدو أن الكتاب يعكس التطور الذي عرفته الكيمياء في المائة والخمسين سنة بعد جابر بن حيان، وخصوصاً ما تم إنجازه من الناحية العلمية وما تم تجميعه من معطيات تهم البحث العلمي الكيميائي الصرف والخالٍ من أي تأثير سحري¹. وهذه المعلومة هي دليل يناقض ما قدمه قنواتي سابقاً، ويعكس عدم تقدير من جانبه لمسألة تطور العلم.

ومما له دلالة في اعتبار كتاب رتبة الحكيم صدى لتطور الكيمياء بعد جابر بن حيان، وصف المجريطي لتجربة أجراها بنفسه ويعتبرها سيمون الحايك ذات أثر خالد في تاريخ العلوم وتتلخص في ما يلي: «أخذت الزئبق الرجراج الخالي من الشوائب ووضعت في قارورة زجاجية على شكل بيضة وأدخلتها في وعاء أواني الطهي وأشعلت تحته نارا هادئة بعد أن غطيته وتركته يسخن أربعين يوماً وليلة مع مراعاة ألا تزيد الحرارة عن الحد الذي أستطيع معه أن أضع يدي على الوعاء الخارجي. وبعد ذلك لاحظت أن الزئبق الذي كان وزنه في الأصل ربع رطل صار حجمه مسحوقاً أحمر ناعم الملمس وأن وزنه لم يتغير»².

ويلحق سيمون الحايك على هذا النص مبيناً أنه يلزم من التجربة أن يزيد الوزن بقدر جزء من مائة من الرطل، وأن المجريطي لم يلحظ ذلك بسبب أن جزءاً من الزئبق قد تبخر وأن ذلك هو سبب نقصان الوزن وهو معادل للزيادة الناشئة من اتحاد باقي الزئبق

1 سيمون الحايك، ص. 373.

2 نفسه.

بالأكسجين. ونظرا لأهمية هذه التجربة الكيميائية التي أنجزها المجريطي وللخلاصات التي انتهى إليها وبالنظر إلى العصر الذي تمت في، فإن "الحايك" ينتهي إلى أن من الجحود تجاهل أمثال هذه التجارب التي قام بها العرب – بالرغم من النقص الذي عتراه- والإشارة فقط إلى مثيلاتها التي أنجزها الأوروبيون¹.

3. ابن خلدون والمجريطي

من اللافت أن ابن خلدون قد انتبه مبكرا إلى ازدواجية النشاط الفكري للمجريطي، وذلك أنه عندما عرض في مقدمته لعلوم السحر والطلسمات، ذكر أن المجريطي كتب كتابا بعنوان "الغاية" (غاية الحكيم) هو بمثابة «مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها»². وقد أكد ابن خلدون نفس الشيء عندما قرر إنكار ثمره الكيمياء واستحالة وجودها، فتحدث عن المجريطي باعتباره أحد الحكماء المتكلمين فيها، وأضاف له كتابا آخر بعنوان "رتبة الحكيم" وذكر أن فيه كلاما في الأمور السحرية وسائر الخوارق وأنه يشبه كلام جابر بن حيان والحلاج³.

ويبدو جليا أن ابن خلدون كان على علم ويقين تامين من ميولات المجريطي السحرية؛ فهو ينقل في مقدمته رسالة بعث بها أبو بكر بن بشرون (من أعلام القرن الخامس الهجري) لأبي القاسم أصبغ بن محمد بن السمع المهري (ت 426 هـ) وكلاهما تلميذان للمجريطي⁴، وتستغرق الرسالة الطويلة مواضيع كيميائية وسحرية من بينها معرفة كيفية تكون المعادن وقلب طبائع الأشياء، وعلاقة النفس بالجسد. وقد عقب ابن خلدون على الرسالة قائلا: «وأنت ترى كيف صرف [ابن بشرون] ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرموز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف. وذلك دليل على أنها ليس بصناعة طبيعية [...] وانظر كيف سعى مسلمة [المجريطي] كتابه فيها "رتبة الحكيم" وسمى كتابه في السحر والطلسمات "غاية الحكيم" إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه [الرتبة]، لأن الغاية أعلى من الرتبة»⁵.

لقد وضع ابن خلدون المجريطي في إطاره الصحيح، وهو الإطار السحري الباطني وربطه بجابر بن حيان الذي كان هو الآخر صاحب معرفة علمية دقيقة وصاحب ممارسة سحرية

1 سيمون الحايك، 373.

2 ابن خلدون، مرجع سابق، ص. 484.

3 نفسه، 526.

4 نفسه، ص. 507.

5 نفسه ص. 513.

وصوفية أيضا. ومن المناسب هنا أن نشير إلى ميولات جابر الإسماعيلية، وارتباطه بجعفر الصادق وتعظيمه له، ولكننا مع ذلك لا نستطيع - في ظل غياب وثائق حاسمة- أن نقيم أية صلة مباشرة بين المجريطي وبين المدرسة الفلسفية الإسماعيلية، وهي المدرسة التي لم تكن تأثيراتها غائبة تماما عن الوسط الأندلسي، ولكنها كانت تعيش وضعا خاصا تمثل في المبالغة الشديدة في التكتّم والتستر نظرا لغياب شروط تقبله في البيئة السنية عموما وفي البيئة الأندلسية بشكل خاص نظرا للحساسية القوية التي كانت تقابل بها الأفكار الكلامية والفلسفية. ونكتفي بالإشارة إلى أن المجريطي كان يدور في فلك العلوم الباطنية الكيميائية والسحرية المشابهة لأفكار فلاسفة الإسماعيلية ومنهجهم، كمنهج السرية والتقنية والمسارة المرتبطة بالتلقين السري للمذاهب الفلسفية العرفانية، وكذا فكرة المطابقة التنجيمية التي تنظر إلى علاقة السماء والأرض وكأنهما شيئا واحدا باعتبارهما يتبادلان التأثيرات نفسها.

ويشكك محمد ألوزاد في نسبة كتاب "غاية الحكيم" للمجريطي، ومن بين ما اعتمده في موقفه هذا، غياب أية إشارة لممارسة المجريطي للكيمياء والسحر من قبل المتقدمين (واللفظ لألوزاد) من جهة أولى، وكذا انعدام ممارسة العلوم السرية بالأندلس في القرن الرابع الهجري¹.

ونحن لا نعرف على وجه الدقة ما الذي يعنيه ألوزاد بالمتقدمين، لأن أغلب المصنفات التي وصلتنا بعد المجريطي والتي تجعل من موضوع الصنعة والعلوم موضوعا لها قد ذكرت المجريطي، ولكنها اكتفت بالشق العلمي الأول الذي كان متداولاً ومسموحاً به، في حين أنها لم تشر إلى الجانب السحري إما لأن الكتاب كان قليل التداول بحكم موضوعه الخطير والمحرم في البيئة الأندلسية، أو لأن المشتغلين بالعلم من تلامذته كانوا حريصين على ألا تصل المضامين السحرية الهرمسية الشرقية التي يحويها الكتاب إلى العامة. لقد حافظ تلامذة المجريطي وخلفاؤه على تقليده في العلم الذي يجمع بين الممارسة العلمية والخلفية الفلسفية، وتحاشوا الحديث عن الكتاب، ومن ثمة لا يبدو أي مبرر لإنكار نسبة الكتاب للمجريطي بمرر غياب ذكره عند تلامذته، لأن ما وصلنا من أخبار عنهم قليل جدا ولا يكفي حتى لرسم صورة كافية عنهم. أما شهرة كتاب الغاية وربطه بالمجريطي فهو أمر شائع ومعروف.

1 انظر محمد ألوزاد، نشأة الفكر الفلسفي بالأندلس، تمهيد لدراسة العقلية الإسلامية في المغرب، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا تحت إشراف علي سامي النشار (مرونة) جامعة محمد الخامس، الرباط. 1979، 1980. ص. 200، 201.

ومن الأدلة التي يتشبت بها ألوزاد لكي ينفي نسبة كتاب غاية الحكيم للمجريطي أن ممارسة العلوم السرية في الأندلس في القرن الرابع كان ضعيفا أو منعدما، بالإضافة إلى أن لا أحد من تلامذته قد عرف عنه الاشتغال بالكيمياء أو العلوم السرية¹.

أما الشق الأول من الدليل والمتعلق بغياب ممارسة العلوم السرية بالقرن الرابع فهو دليل مردود يناقضه ما أوردناه سابقا من شخصيات مشهورة بممارسة العلوم السرية، فعباس بن فرناس (180-274هـ) كان صاحب نيزجات وله عمل في السحر والكيمياء حتى اتهم بالزندقة، وعبد الله بن الشمر بن نمير (عاش في فترة حكم عبد الرحمن الأوسط (176-238 هـ) كان منجما وقارنا للمستقبل وأنه كان يعتمد على معطيات التنجيم، وابن السمين (ت 315هـ) بصير بعلم النجوم، وصاحب القبلة (ت 295 هـ) وعبد الله السري (302-366 هـ) كذلك. هذا دون أن نغفل الشخصيات المستترة الكثيرة التي خفي أمرها عن المصادر لشدة استتارها خوفا من ردود أفعال المجتمع الأندلسي.

وأما الشق الثاني والمتعلق بغياب الممارسة العلمية السرية لدى تلاميذ المجريطي، فهي الأخرى غير صحيحة، بل يتضح عكسها رغم أننا لم نقم بعد بجرد التأثير السحري على تلامذته بشكل عام، ولكننا يمكن أن نلاحظ في عجالة أن الوضع المعرفي الذي كان عليه المجريطي قد انعكس على تلامذته، وانتقلت إليه خاصيته البارزة كما شرحناها سابقا، ولهذا جاؤا هم أيضا -كما تذكر المصادر عنهم- متعددي الانشغالات جامعين بين الانشغال العلمي والسحري، ومن بينهم ثلاث شخصيات أساسية:

✓ ابن السمح² قاسم بن أصبغ بن محمد المهري، طبيب وفلكي ومنجم (ت 426 هـ) وقد سبق أن أشرنا إليه باعتباره الشخص الذي تلقى رسالة كيميائية ملغزة من أحد رفاقه وهو ابن بشرون.

✓ الكرمانى، وهو عمر بن عبد الرحمان بن أحمد بن علي الكرمانى القرطبي الأندلسي (ت 458هـ) برع في مجال الهندسة والفلك، كان طبيبا ومهندسا. رحل إلى المشرق وعاد إلى الأندلس بـ"رسائل إخوان الصفا"، على حد تعبير صاعد الذي يقول عنه "ولا نعلم أحدا أدخلها الأندلس قبله"³. ولكن شهادة الكثير من المصادر تذكر أن المجريطي أدخل نسخة

1 ألوزاد، ص. 200.

2 صاعد، مرجع سابق، ص. 69.

3 نفسه، ص. 71.

أولى، ويبدو أنها كانت نسخة أولية، أو معدلة بحسب ما أوردنا سابقا، وإذا أمكننا الجمع بين الروايتين معا، فمن المرجح أن يكون المجريطي قد أدخل نسخة غير مكتملة، وربما أضفنا أيضا في هذا الافتراض أنه كان هو ممن حرروا مادتها بمعية باقي "الإخوان"، أو على الأقل أدخل الجزء الذي وصله آنذاك، لأننا لا نملك معلومات دقيقة عن تداول الرسائل في البداية ولا نوع الأجزاء التي اشتهرت أولا. وعلى كل حال فإن تردد إدخال الرسائل إلى الأندلس بين الشيخ والتلميذ أمر غير ذي بال، وهو موضوع قابل للتفسير على أنحاء متعددة غير متناقضة.

✓ ابن خلدون: أبو مسلم عمر أحمد بن خلدون الحضرمي، وهو من أشرف مدينة اشبيلية، يبرز نشاطه الفلسفي كمدخل إلى انشغاله العلمي باعتباره منجما وطبيباً أيضاً، وقد توفي سنة 459 هـ.

لقد فعل ابن سبعين قبل ابن خلدون نفس الشيء تقريبا حين ربط المجريطي بالسحر وبالتراث الفلسفي لإخوان الصفا؛ فهو يذكر أن السيمياء خمسة أنواع، ويذكر أن القسم الأول منها هو «الكاذبة منها التي يذكرها مسلمة المجريطي صاحب رسائل إخوان الصفا والمشكوك منها الذي يزعم ابن مسرة أنه وصله، والصحيح منها الذي إذا وصف للفقيه سماه كرامة، وإذا ذكر للحكيم سماه تصريفا، وإذا ذكر للمقرب سماه فتنة¹».

وربما خفي على الأستاذ ألوزاد ما يعنيه مصطلح العلوم السرية على وجه الدقة، لأن الأبحاث في هذا المجال قد تعمقت إلى حد كبير في الآونة الأخيرة، ولهذا ظهرت الدراسات الغربية في مجال العلوم السرية ثمرة جهود مجموعة من حلقات البحث التي تضم مختصين متعددي المشارب كالفلسفة وتاريخ العلم وتاريخ الأديان يقصر ألوزاد وصف العلوم السرية على الخيمياء والسحر، في حين أن علم أحكام النجوم أو التنجيم هو العنصر المكمل للعلوم الباطنية الثلاثة الرئيسية كما حددها مختصون في هذا المجال وأدركوا عمق الوشائج المتبادلة بينها وأنها متكاملة في تصوير الرؤية السحرية لموضوعات المعرفة. ذلك أن دارسي العلوم السرية يتحدثون عن ثلاثة علوم تقليدية لا يظهر مطلقاً أنها ترجع إلى فترة تاريخية خاصة، وهي: الكيمياء القديمة أو الخيمياء Alchimie والتنجيم Astrologie والسحر Magie. وترتبط هذه العلوم فيما بينها ارتباطاً وثيقاً في مختلف العصور والثقافات ولها أشكال تاريخية مرتبطة

1 رسائل ابن سبعين، تحقيق عبدالرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت، ص. 254، 253.

متنوعة داخل كل سياق ثقافي أو جغرافي معين¹. فالهرمسية والغنوص والتصوف الإسلامي والقبالا اليهودية وتصوف المركبا والإسماعيلية.... كلها أشكال عبرت عن نفس المضمون الفلسفي والروحي في فترات تاريخية مختلفة، وظلت تمتح من نفس التقليد السري باعتبارها تجليات لنفس الرؤية السحرية التي تقوم فيها العلوم السرية بدور أساسي.

إن الرسالة التي يسوقها ابن خلدون، والصادرة عن تلميذ مباشر للمجريطي²، وهو أبو بكر بن بشرون، والموجهة لأبي القاسم أصبغ بن محمد بن السمع المهري وهو الآخر تلميذ للمجريطي، تظهر نضجا كبيرا في التفكير الكيميائي لدى المدرسة المجريطية، مما يدل على أن العلوم السرية كانت متفشية بل ومزدهرة، في البيئة الأندلسية قبل القرن الرابع الهجري، لكن في الأوساط المغلقة لممارستها بعيدا عن أعين العامة؛ لأنها لا يمكن أن تظهر هكذا مكتملة دفعة واحدة في القرن الرابع. ولقد أشرنا في مقدمة الدراسة إلى بعض ممارسي العلوم السرية قبل القرن الرابع.

تستغرق الرسالة الطويلة الهامة التي حفظها لنا ابن خلدون مواضيع كيميائية وسحرية من بينها معرفة كيفية تكون المعادن، وقلب طبائع الأشياء، وعلاقة النفس بالجسد....، وقد عقب ابن خلدون على الرسالة قائلا : «وأنت ترى كيف صرف [ابن بشرون] ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرموز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف، وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية»³.

وثمة مسألة لم يستشعر الأستاذ محمد ألوزاد أهميتها الكبرى -لاعتبارات متعلقة بالأسئلة التي كانت توجهه-، وتتعلق بالتكتم الشديد الذي كان الكيميائيون والمنجمون يحيطونه بعلومهم وممارساتهم ومعتقداتهم نظرا لمخالفتها للكثير من العقائد الإيمانية، وللبساطة الفكرية التي طبعت الأندلسيين ومذهبيهم الأشعري في العقيدة والمالكي في الفقه، بل ومخالفتها للإسلام وللأديان التوحيدية عموما، وهو الأمر الذي انتبه له ابن خلدون أثناء حديثه عن إنجازات المجريطي السحرية، يقول: «والمتكلمون فيه [السحر] من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة، ومن كان قبلهم من الأمم، إنما نحووا هذا المنحى، ولهذا كان كلامهم فيه

1 Faivre (A), *L'ésotérisme*, PUF, Paris, 1992, p. 10.

2 يقول ابن خلدون : "وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لأبي السمع في هذه الصناعة وكلاهما من تلاميذ مسلمة، فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطيته حقه في التأمل...."، ويسوق الرسالة كاملة. ابن خلدون، مرجع مذكور، ص. 507.

3 نفسه، ص. 513.

ألغازاً، حذراً عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه لا أن ذلك يرجع إلى الضنانة بها كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك»¹. وإذا كان الاتفاق بين الفقهاء وعامة الأندلسيين في مهاجمة المشتغلين بالعلوم السرية واضطهادهم راجعاً إلى أسباب دينية، فإن الخلافة الأموية كانت لها بدورها نفس الأسباب للتحرك ضدهم، فابن حيان يشير إلى أن الناصر كان على علم بالمذاهب الظاهرة والباطنة المتفشية بالأندلس، أي أن السلطة الأموية كانت تتابع عن بعد تلك الأنشطة، وكان موقفها هو نفسه موقف الفقهاء، وكانت تعتبر الفيصل في حل النقاشات هو الفقه المالكي والنصوص الدينية². ويمدنا الونشريسي بنص صريح في تعليل ما نحن بصده فيقول: «وكان الحكم ممن طالع الكتب ونقر عن أخبار الرجال تنقيراً لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم، فقال في كتابه: وكل من زاغ عن مذهب مالك أنه ممن رين على قلبه وزين له سوء عمله»³.

أنعجز بعد إدراك خطورة مخالفة الفقه المالكي وظاهر القرآن والحديث، أن نفهم كيف استتر أصحاب العلوم السرية، ومحترفو الكيمياء والسحر ممن يخالفون مطلقاً صريح النصوص وواضح أحكام الفقه؟ من الطبيعي جداً أن يختفوا عن الأنظار طيلة أيام المحنة، حتى إذا ظهر في الأفق مناخ من الحرية عادوا إلى الواجهة كما حصل في فترات لاحقة. هذا سبب نهينا إليه ابن خلدون كما أثبتنا ذلك سابقاً، وهو على بساطته سبب وجيه لأنه يفسر لماذا كان على الاشتغال بالعلوم السرية أن يكون سرياً.

ينطق كتاب "غاية الحكيم" بالفكرة نفسها التي أمدنا بها صاحب المقدمة، فالكتاب، أي غاية الحكيم، مليء بالنصوص التي يحكمها هاجس الخوف من القتل والتشريد والتنكيل والاضطهاد وسوء الفهم من قبل كل من سيسقط الكتاب بين يديه. لا يستطيع الكاتب أن يميز قراءه ولا أن يختارهم، ولهذا لا مفر من الإبقاء عليه طي الكتمان. وإذا كان لا بد من نشره فينبغي توخي الحذر الشديد في اختيار من سيطالعه. لهذا السبب بقي الكتاب وأمثاله من كتب العلوم السرية محصوراً في دائرة ضيقة من المتابعين والمنشغلين المختارين بعناية. يقول المجريطي: «واعلم أيها الناظر أن بحق ما ستروا الحكماء هذه العلوم ضناً بها على من ليس من أهلها ولذلك ما قيل لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها من أهلها

1 ابن خلدون، 513.

2 ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا وكورنيطي وصبيح، مدريد، 1979، الجزء الخامس، ص. 23-24.

3 الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، الجزء 12، ص. 26.

فتظلموهم، وكذلك قولهم لا تضعوا الدر في أعناق الخنازير وحدثوا الناس بما يفهمون ولا تحدثوهم بما لا يفهمون، ولو حدثت الناس بما أعلم لقطع مني البلعوم [...]، فعليك أيها الناظر بحفظ ما يصل إليك من هذه العلوم وسترها ما استطعت»¹.

يعبر نص ابن خلدون السابق بوضوح تام عن فكرة هامة وهي نسبة المجريطي للتقليد الكيميائي والسحري لجابر بن حيان، وربما كان ابن خلدون منخرطاً بشكل مباشر في الجدل حول مدى خطورة المنحى السحري للانشغال الكيميائي والتنجيمي لجابر والمجريطي من بعده، فهو ينتقد بشكل جلي حجة القائلين بانعدام الممارسة العلمية السرية بالأندلس، وكأنه يرد عليهم، وربما كان في زمن ابن خلدون من يقف ذلك الموقف، وينفي عن المجريطي ضلوعه في هذا التقليد. ولكن هناك قضية ثالثة تسترعي انتباهنا في النص الخلدوني الهام، وهو أن هناك موقفاً آخر وإن لم يذكر "العلامة" أصحابه، وهو موقف يفسر تكتّم المجريطي وتلامذته على ممارساتهم العلمية بسبب "الضن بتلك العلوم على غير أهلها"، وهو التفسير الذي يرفضه ابن خلدون بقوة ويرجع سبب التلغيز والترميز إلى خطورتها على الدين وما تقوله الشريعة وما ترسخ من قواعد وآراء كلامية في تلك الفترة.

وإذا كان لا بد من البحث عن مواطن تأثر المجريطي بالفلسفة الإسماعيلية، فإن ذلك مرتبط في اعتقادنا بمسألتين أساسيتين:

الأولى: كونه ينسب إليه إدخال رسائل إخوان الصفا، وهي رسائل إسماعيلية- لأول مرة إلى الأندلس². وإن كان من المحتمل أيضاً أن يكون تلميذه الكرمانى أول من أدخلها وفي كلتا الحالتين تبقى مدرسة المجريطي هي المسؤولة عن إدخال تلك الرسائل إلى الأندلس. وقد رأينا سابقاً كيف أن ابن سبعين يسمي المجريطي صاحب رسائل إخوان الصفا. ومن المحتمل ألا يكون قصده كاتبها أو محررها وإنما من عنى بها وأدخلها إلى الأندلس، أي المعروف بها.

الثانية: كونه نسبت إليه الرسالة الجامعة، وقد عني بنشرها وتحقيقها منسوبة إلى المجريطي "جميل صليبا" سنة 1948م. ويعتقد المحقق أن الرسالة منحولة، وأنها هي الرسالة الجامعة التي أشار إليها كتاب إخوان الصفا مستدلاً بما يلي:

1 المجريطي، غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم، تحقيق ه. ريتز (Glastonbury book 2007) ص. 171.
2 انظر الدوميلي، العلم عند العرب وأثره في التطور العالمي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ويوسف محمد موسى، دار القلم، دمشق، 1962، ص. 351.

➤ خلو مخطوطات الرسالة الجامعة من نسبتها إلى المجريطي، باستثناء نسخة واحدة يظهر أن عنوانها الذي ينسب إلى المجريطي مكتوب بخط حديث مختلف عن خط الرسالة مما حمل المحقق على رد ذلك إلى أهواء الوراقين والنساخين.

➤ المؤرخون القدامى الذين ترجموا للمجريطي لم ينسبوا إليه الرسالة الجامعة.

➤ تشابه أسلوب الرسالة الجامعة مع أسلوب رسائل إخوان الصفا.

➤ الرسالة الجامعة تحيل قراءها وتردهم في مناسبات كثيرة إلى مواضيع سبقت معالجتها في الرسائل مما يدل في الغالب على وحدة المؤلف¹.

ولقد أدى خطأ نسبة كتاب الرسالة الجامعة إلى المجريطي ببعض الباحثين إلى استخلاص معالم فكره من خلال نفس الكتاب²، في حين أن تلك الأفكار تعبير عن عقائد إسماعيلية محضة. وقد ذهب باحث آخر إلى افتراض اتصال المجريطي بواضعي رسائل إخوان الصفا أثناء إقامته بالمشرق، واشتراكه معهم في وضعها وخصوصا الجزء الكيميائي منها³. وهذا يؤدي إلى القول ضمنيا بإسماعيلية المجريطي. ولكننا، وفي ظل غياب أدلة صريحة تؤكد انتماءه للإسماعيلية، نعتبر أن في ذلك دعوى ومبالغة لا دليل عليها بل هي أقرب إلى مجازفة يقع فيها بعض من يستعصي عليهم وضع شخصية فكرية جمعت بين الممارسة العلمية والفلسفية في إطارها الصحيح، والسقوط بذلك في فخ المصادر الإسماعيلية التقليدية التي تحاول أن تنج بكل أعلام القرن الرابع الهجري في قائمة الإسماعيلية.

ومع كل هذه الاحترازاات، فإن ارتباط اسم المجريطي برسائل إخوان الصفا ونسبة الرسالة الجامعة إليه إضافة إلى ما تأكد من ميولات خيمائية لديه، كل هذا يحمل على الاعتقاد بوجود صلة ما بينه وبين الإسماعيلية، علاقة تأثير وتأثر أو إعجاب، أو شيء من هذا القبيل، ولكن ليس بالضرورة أن يكون إسماعيليا، هذا إذا أردنا أن نتقيد بما تمدنا به المصادر. إن المناخ الإسماعيلي للمجريطي شبيه بالمناخ الفكري لجابر بن حيان وتأثره بالفلسفة الإسماعيلية، فكلاهما نشأ في بيئة عرفانية وطورا علومهما بتأثير من الفلسفة الهرمسية وإن كانا قد اهتمتا بجانب من المعرفة العلمية الطبيعية والتجريبية. لقد كان ابن سينا متأثرا بالفلسفة الإسماعيلية، ووالده كان إسماعيليا، ولكن من المؤكد أن ابن سينا لم

1 المجريطي، الرسالة الجامعة المنسوبة للحكيم المجريطي، ص. 8-10.

2 الأب ميخائيل الجميل، المجريطي ونظريته في الطبيعيات، مجلة آفاق عربية، عدد 11، تموز 1976، ص. 82-85.

3 محمد فياض، جابر بن حيان وخلفاؤه، سلسلة اقرأ، ع. 21، دار المعارف، القاهرة، 1956، ص. 85.

يكن إسماعيليا، رغم تأثره بالمناخ الفكري العام الذي تشكل الإسماعيلية أفقا من آفاق كثيرة ساهمت في تشكيل مذهبه الفلسفي، ونعتقد أن الأمر نفسه حصل للمجريطي.

إن ربط المجريطي بالتقليد الكيميائي لجابر بن حيان مبرر جدا، وقد كان ابن خلدون واعيا بعمق الروابط المشتركة بين الشخصين، فجابر عنده « كبير السحرة في هذه الملة، فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص في زبدتها واستخرجها ووضع فيها عدة من التأليف وأكثر التأليف فيها وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها، ولأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما تكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية، فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه »¹. إن ما ذكره ابن خلدون عن جابر بن حيان هنا هو ما سيعمل المجريطي على تعميقه في كتاب الغاية وتفصيله، وبلغه المشتغلين بالعلوم السرية: كشف أسرار.

لقد أورد ابن خلدون المجريطي في سياق حديثه عن جابر بن حيان، بل إن أول حديثه عن المجريطي جاء عقب نهاية حديثه عن جابر، يقول: « ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات، فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم، ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده »².

4. المجريطي من خلال كتاب "غاية الحكيم"

يعكس كتاب غاية الحكيم الثقافة الواسعة للمجريطي والتي تشمل معارف علمية دقيقة وأخرى فلسفية منطقية وأخرى لغوية. ومن الملاحظ أنه في تصنيفه للعلوم يسكت سكوتا مطلقا عن علمي السحر والكيمياء، وهما العلمان اللذان سببا مشاكل في تلقي كتاب المجريطي وتراثه في البيئة العربية الإسلامية. ولكن ذلك الصمت ليس رغبة منه في إقصائهما، بل لأنهما يمثلان مرتبة أرفع من كل تلك العلوم. إنهما غائبان عن التصنيف لأنهما فوق التصنيف وخارجه، وهذه ظاهرة محيرة نجدها عند المجريطي ولا أعتقد أنها قد تكررت مرة أخرى في أي تصنيف آخر.

ولتوضيح فلسفة المجريطي في تصنيفه للعلوم، وهي المهمة التي خصص لها فصلا خاصا من كتاب الغاية، ينبغي أن نعود إلى مبدأ عام يتكرر عنده في ثنايا الكتاب، ويعبر عنه من خلال مفهومين متميزين هما "الدُّب" و"الرياضة"، ويعنيان عنده العمل والسعي الجاد

1 ابن خلدون، مرجع مذكور، ص. 482.

2 نفسه، ص. 483.

والدائم، ومن الغريب أنه لا يميز بين توظيفهما من قبل الفيلسوف سواء في اليقظة أو في النوم، إذ يتعين عليه أن يحافظ على دؤبه ليلاً ونهاراً، وهذا متصل بنظرية معقدة في الخيال تجد تفسيرها في تبعية النوم لليقظة عن طريق تدريب متواصل. خلاصة القول أن هناك نشاطاً فلسفياً مستمراً لا يتوقف، بل إن المجريطي لا يتصور أي تطور علمي أو تقدم دون المواظبة على خاصيتي "الدؤب" و"الرياضة"، وسنرى أن هذا الأمر مرتبط بعنوان الكتاب نفسه.

هناك عشرة علوم أساسية لإدراك النتيجة¹، ويجعل المجريطي العلوم الخمسة الأولى منها ضرورية لواضعي النواميس، أي لرجال الدولة الساهرين على تدبير شؤون الناس، ويرتبها على الشكل التالي :

- علم الفلاحة والرعاية والملاحة: ويلاحظ المجريطي أنها علوم تحتاجها الدولة في بداية تأسيسها وحسن عمارتها، ولا بد من الرجوع إلى التأليف السابقة وهي متوفرة.
- علم قود الجيش ومكايد الحروب ورياضة الدواب والبيطرة والبزدة². ولا نجد مبرراً لجمعه بين الجانب العسكري والطب الحيواني، اللهم إلا إذا اعتبرنا الدواب والخيل والبغال وسائل في خدمة الجيوش.
- العلم المدني المدبر لأجزاء المدينة ويدخل فيه كل أنواع المعرفة اللغوية من نحو ولغة وآداب، والمعرفة الفقهية كعلم الأصول والفرائض وأحكام الملة عموماً. وهو يلاحظ بنظرة كونية فاحصة أن كل ملة من الملل تنشئ مدناً وتؤسس معارفها الخاصة بها في هذا المستوى، ولهذا تختلف هذه الجوانب باختلاف الملل.
- السياسات: وهو ينطلق فيها من العام إلى الخاص كسياسة مدن كثيرة في الآن نفسه، أو سياسة مدينة واحدة، أو سياسة تقع في مرتبة وسيطة كسياسة المنزل، ومن ثمة يصل إلى أخص سياسة وهي سياسة الإنسان نفسه.
- العلم الأخلاقي: وهو يشير إلى أن الكتب والتأليف فيها موضوعة ومتوفرة.

1 مادام عنوان الكتاب هو غاية الحكيم وأحقّ النتيجتين بالتقديم، النتيجة الأولى هي النتيجة الصنعوية التي ينتهي إليها قارئ كتاب رتبة الحكيم الذي خصصه للكيمياء، والنتيجة الثانية هي النتيجة السيميائية السحرية التي ينتهي إليها كتاب غاية الحكيم. أي أن الأمر مرتبط بعقد موازنة بين علمي الكيمياء والسحر وأيهما أولى بالتقديم.

2 يقصد بها صيد البزاة وتربيتهم وهي صناعة اشتقاقها اللفظي فارسي.

وهنا ينتقل إلى العلوم الخمسة الثانية التي تكمل العلوم العشرة. وهذه الخمسة علوم ضرورية هذه المرة لا لرجال الدولة والحكام من أصحاب التدبير، ولكن للفلاسفة، فلا يكون الفيلسوف مستحقا لهذا الاسم إلا إذ أتقن العلوم التالية :

- العلم بالرياضيات : ويدخل تحته المعاملات والجبر والفرائض، والهندسة العلمية والعملية كالمساحة والتكسير ورفع الأثقال وعمل المنجنيق والحيل المائية والهوائية والمرايا المحرقة والمناظر. ويدمج المجريطي علم النجوم في هذا القسم ويورد فروعه وهي الهندسة والهيئة والتعديل والقضاء (أي علم القضاء بأحكام النجوم) والتربيع والموسيقى والإيقاع والعروض. وفي هذا القسم أيضا يضعنا المجريطي أمام جمع فريد لعلوم الرياضة، ويدرج علوما أقصاها أغلب مصنفي العلوم واعتبروها دخيلة على علوم الطبيعة وعلوم التعاليم.

- علم المنطق : وهنا يكتفي بالإحالة على أرسطو قائلا : « وتحيط به [المنطق] ثمانية كتب والحكيم الأول قد هدانا بها ونور بصائرنا»¹.

- علم الطب والصيدلة والجراحة وطب العيون.

- العلم الطبيعي : ويحيل على أرسطو واصفا إياه بـ "الحكيم" مطلقا، ويذكر كتبه في هذا الصنف من العلوم.

- علم ما بعد الطبيعة : ويذكر أن أرسطو قد كتب فيها ثلاثة عشر مقالة بلغت بها غايتها. لا يطلب هذه العلوم إذن إلا الفيلسوف، ولا يعد فيلسوفا حقا حتى يتقنها، ولكن ماذا بعد؟ إن إدراك هذه العلوم والتمكن منها على الوجه المطلوب لا يمكن أن يكون غاية في حد ذاته، إننا أمام بداية جديدة لعلمين جديدين ملحقين ومضافين للأنحة، لعلمين شريفيين لم يردا في التصنيف العشري السابق للعلوم. وهذان العلمان هما المقصودان بالنتيجتين، وهي العبارة الواردة في العنوان (غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم) فما هما؟ إنهما ببساطة الانشغالان المعرفيان الحقيقيان للمجريطي، واللذان خصص لكل علم منهما كتابا مفردا واستنتج من دراسته لكل واحد منهما نتيجة. إنهما علمان باعتبار أن لكل منهما موضوعا وقواعد ومبادئ، وهما في الآن نفسه نتيجتان لأن قواعد كل علم منهما متوقفة على خلاصات ونتائج العلوم السابقة. إنهما روح العلوم وجوهرها. ولكن المجريطي لا يستطيع للأسف أن يصرح بذلك، لأن الجو العام بالأندلس يعادي هذين العلمين، بل إن التوجه الكلامي والعقدي

1 المجريطي، مرجع مذكور، ص. 334.

وحتى الديني يجعل من كل إفصاح عن حقيقة هذين العلمين مغامرة غير محمودة العاقبة.

إن النظر في النتيجتين لا يتم إلا للفيلسوف المحيط بهذه العلوم على حقها والذي تم له التصديق الكامل بها و«هو الفيلسوف التام، فهناك أيها الناظر تنتبه من نوم الغفلة كي تشاهد ما شاهدته الحكماء الأولون من المراتي الإلهية والمسموعات الروحانية»¹.

وظيفة الفلسفة متوقفة على حصول وظيفة العلم؛ أي أن الفيلسوف لا يكون فيلسوفاً إلا بتحصيل شرط العلم الطبيعي وعلوم التعاليم من حساب وهندسة وفلك ... لكن هذا لا يكفي. إنه شرط أول فحسب، وهو يقود آلياً ونسقياً إلى شرط ثان، وهو علوم الفلسفة من منطق وميتافيزيقا ... لكن هذه المعارف العلمية الطبيعية والفلسفية لا قيمة لها بدون "الانتباه" و"الرياضة" و"الدؤب" الذي يجعل الفيلسوف في مقام الإنسان الكامل، الإنسان الشبيه بالإله، الإنسان الخليفة المقصود في القرآن "إني جاعل في الأرض خليفة"².

ولنعد إلى التذكير بأن ابن خلدون كان واعياً بهذا الأمر أشد ما يكون الوعي، وهو ما يجعلنا نطمئن إلى ترجيحاته في الموضوع، فهو يذكر من ضمن ما يذكر من الملاحظات الهامة أن المجريطي كتب « كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قريناً لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم. وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم، ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع»³.

وبالرغم من أن المجريطي لا يذكر التصوف بشكل صريح إلا أنه لا يفتأ يتحدث عن الإنسان الكامل والإنسان الشبيه بالإله، وإذا كان لا بد من ربطه بأحد أشكال التصوف فهو التصوف الفلسفي الإشراقي المنفتح على المعرفة السحرية، وفي هذا الصدد نعثر على شهادة هامة يوردها المجريطي مسجلاً إعجابه الشديد ببعض المعلومات التي اطلع عليها في أحد مصنفات الحلاج سنة 312هـ ومن ضمنها وصفة سحرية مرتبطة بالزراعة ينتج عنها بطيخ مفقد للعقل⁴.

1 المجريطي، ص. 335.

2 نفسه.

3 ابن خلدون، مرجع منكور، ص. 507.

4 المجريطي، مرجع منكور، ص. 381. ولا بد أن هناك خطأ في السنة التي يوردها هنا لأن وفاة المجريطي كانت بين 395 أو 398 بالأندلس، وولادته سنة 338. ولم أر أحداً من الذين سبقونا للبحث في المجريطي قد أشار إلى هذا المعطى، وإلا لكانت هذه القصة قد وقعت قبل ولادة المجريطي بست وعشرين سنة. ولو كان الأمر على هذا الشكل لانتهى الخلاف حول نسبة الكتاب. وهناك احتمال آخر وهو أن السنة متعلقة بالحلاج، علماً بأن تاريخ وفاة هذا الأخير كانت 309هـ.

أما منزلة الفلسفة في كتاب الغاية فعظيمة رغم أنها ليست مقصدا مباشرا من مقاصد الكتاب، ويتجلى ذلك في كثرة التفصيلات الفلسفية الدقيقة في موضوعات من قبيل النفس والعقل والجسد وغيرها، إلا أن المجريطي يقطع استطراداته الطويلة حتى ليكاد القارئ ينسى موضوعه الأصلي وهو علم النجوم أو السحر أو الطلسمات. والجدير بالذكر أن هذه المسألة ذات مغزى عميق غي كتاب الغاية؛ ذلك أن القارئ يلمس أن الكتاب مكتوب بنفسين:

➤ نفس الفيلسوف المدقق العارف بأقوال القدماء المستعرض لأقوالهم بدقة، وهي دقة تتناسب مع ما وصله أو نقل إليه حتى حدود عصره من التراث الفلسفي، هذا دون أن تغفل كثرة الآراء المنحولة الواردة في الكتاب والتي تعكس الصورة التي نقل بها التراث الإغريقي إلى البيئة العربية فكثيرة هي الآراء الأفلاطونية المنسوبة خطأ إلى أرسطو والأفكار الأفلاطونية المحدث المنسوبة إلى أفلاطون والأفكار الفيثاغورية الجديدة المنسوبة إلى حكماء ما قبل سقراط أو إلى سقراط نفسه، وهذا موضوع يستري الانتباه ولكنه يحتاج دراسة مفردة¹.

➤ نفس المنجم الخبير بعلوم السحر ومطالع الأفلاك وموضوعات الربط القسري بين أشخاص يتبادلون الكراهية أو الفصل بين الأحبة أو مناجاة الكواكب أو طلب الاستمداد من روحانياتها رغبة في الجاه أو السلطة وغير ذلك من الموضوعات التي يجد الباحث المعاصر حرجا في استساغتها أو يشعر بامتعاض وهو يقرأ مضامينها الأسطورية الفجة.

ولأن غرض الكتاب هو الموضوع الثاني وليس الأول فإن المجريطي يعود كل مرة لذكرنا به قائلا: « ولنرجع إلى مرادنا بتأليف هذا الكتاب فأقول ... »²، ثم إنه يذكر أنه سبق أن فصل موضوعات الفلسفة في كتب سابقة وهو يعود إليها فقط لمناسبتها مع سياق الموضوع المطروق؛ فالموضوعات الفلسفية والمنطقية متداخلة ومتعايشة مع منطلقات ومبادئ سحرية وأسطورية وشعبية، ولولا أن التداخل الحاصل على مستوى الرؤية محكم ومبني على أسس متينة من الضبط الداخلي للكتاب ومن تساقق العبارة لقلنا إن الكتاب ملفق؛ لكن لا مناص من ذلك، فإن كان هناك من تليفق فهو في فهم المجريطي الذي بنى من خلاله كتابه؛ فالذي يعتقد أن تفاصيل أحكام النجوم جزء من الفلسفة ونتيجة للعلم، لا يجد أدنى غضاضة في الجمع بين الكهانة ومناجاة الكواكب واستخراج الكنوز وصنع الطلسمات وبين الحكمة والمنطق ومبادئ أرسطو وقوانين الرياضيات.

1 ينسب مثلا تعظيم الكواكب إلى أفلاطون (ص. 325) كما ينسب إلى أرسطو المماثلة بين الكواكب وبعض الخصائص السياسية والاجتماعية، فالملك لزحل والعدل للمشتري كما يجعل من السحر والخيمياء موضوعا مفضلا وهما معرفيا لأفلاطون وأرسطو وأبقراط (ص. 326)

2 المجريطي، غاية الحكيم، ص. 295.

ورغم هذا الطابع السحري للمجريطي، فإنه يتمسك بشرارة عقلية في بحثه، فهو يذكر في سياق حديثه عن أنواع السحر أن « حقيقته على الإطلاق هي سحر العقول، فكل ما سحر العقول وانقادت إليه النفوس من جميع الأقوال والأعمال بمعنى التعجب والانقياد والإصغاء والاستحسان وهو مما يصعب على العقل إدراكه ويستتر عن الغبي أسبابه [...] فبالجملة السحر هو ما خفي على عقول الأكثر سببه وصعب استنباطه »¹.

والمجريطي يقسم السحر إلى قسمين علمي وعملي، فالعلمي هو معرفة مواضع الكواكب الثابتة إذ موضوعها محل الصور وكيفية إلقاء أشعتها على السيارة وهيئات نسب الفلك، ولكنه يرى أن أحسن أنواع السحر العلمي هو الكلام. ويشير إلى الحديث النبوي الذي يثبت أن من الكلام لسحرا، ويربطه بنص ينسبه إلى أفلاطون من كتاب غير معروف النسبة إليه وهو كتاب الفصول : «كما يرجع إليك الصديق عدوا بالكلام السيء كذلك ينقلب لك العدو صديقا بالكلام الحسن، أليس هذا من قبيل السحر؟»².

بهذا المعنى يكون السحر نوعا من تتبع الأسباب الخفية التي ينبغي إدراكها بالإنصات إلى الطبيعة والوقوف على كل أشكال التأثير في الطبيعة. إذ أن مدلول كلمة سحر في ذهن المجريطي غير المدلول الخرافي المألوف والضيق، بل « هو مدلولها في الأذهان الوقادة والأفكار النيرة التي حاولت أو هي تحاول دائما تسخير قوى الطبيعة وإخضاعها لاستخدامها في رفاه الإنسان ورفع مستواه في سلم الحضارة والعلوم والعمران »³.

وفي سياقات أخرى تحضر النزعة العقلية حضورا قويا، خصوصا حينما تكون للقضية جذور في الكلام والإلهيات، أو التشكيك في قدرة العقل وثوابت العلم؛ فقد أورد المجريطي أثناء حديثه عن علم ما بعد الطبيعة حكاية حصلت لمتى بن يونس، وقد كان يجادل رجلا يقدر في علم الحساب من وجهة نظر دينية ويتمسك بالقدرة الإلهية فقال له : « أفيقدر الله أن يجعل جملة المضروب من خمسة في خمسة لأقل من خمسة وعشرين أو أكثر منها، فأسكته ولم يجد له جوابا »⁴. يستحضر المجريطي هذه الواقعة في سياق الدفاع عن علوم الحساب والعدد، وهو لا يجد أية غضاضة في الجمع بين الدعوة للسحر والدفاع عن علوم التعاليم. لقد كان المجريطي هو "أوقليدس الأندلس" عند بالنتيا، وهو عند ابن خلدون "شيخ الأندلس في علوم

1 المجريطي، غاية الحكيم، ص. 7.

2 نفسه، ص. 5.

3 محمد رضا الشيباني، المجريطي فلسفته ومكتشفاته، مجلة المقتطف، يوليو 1939، ص. 152.

4 المجريطي، مرجع مذكور، ص. 335.

الكيمياء والسيما والسحر"، وهو قبل هذا وذاك فيلسوف درس الفلسفة ودرسها وجعلها العنوان الأبرز لجميع أنشطته. هنا لا مفر لنا من طرح السؤال الآتي: بأي معنى فهم المجريطي السحر حتى دافع عنه بكل ما وسعه من المعرفة والبراهين ومن الثقافة العلمية والمنطقية والفلسفية التي حصلها طيلة حياته.

ربما كان المجريطي، بناء على ما يذهب إليه رضا الشيباني¹، يميل إلى الدراسة الواسعة ولكنه يرجع إلى العلوم الواقعية التي يؤيدها الحس والتجربة ولا يدعن إلا لأحكام العدد والأرقام في تفكيره، ويتأكد هذا الزعم بما يذكره المجريطي من جعله لجابر بن حيان قدوة يقتدي بها، فهو يعظمه تعظيما كبيرا ويذكر أنه اقتنى جملة من كتب رسائل جابر في العلوم التعليمية والطبيعية وفي علم الحيل. ونستطيع القول إن هذا الجانب الوارد في ملاحظة الشيباني هو الجانب التجريبي عند جابر بن حيان، علما بأن الجانب السحري عند جابر، وهو أمر غير خاف على الباحثين في العلم العربي، يحضر هو الآخر بدوره وبشكل لافت في الشق السحري من نشاط المجريطي.

خاتمة :

يشكل حضور جابر بن حيان بتناقضاته الميزة الأساسية لتجربة المجريطي العلمية، وهذا هو الفرق بينه وبين ممارسي العلوم السرية قبله، كان للتنجيم والكيمياء دور كبير في أنشطتهم بكل حملتهما الفلسفية والهرمسية، وقد أضاف إليه المجريطي علم السحر ودافع عنه بالمقدمات البرهانية، بل جعله على رأس العلوم كلها، وإذا كانت العلوم تنتهي إلى خلاصتين اثنتين أو نتيجتين، الكيمياء والسحر، فإن السحر أولى وأحق بالتقديم من الكيمياء. إن السحر هو النتيجة النهائية لكل البحث العلمي. بذلك تكون العلوم السرية قد بلغت ذروتها واكتمالها مع المجريطي حيث أصبح بالإمكان الحديث عن "مدرسة" ستستمر بعده حاملة الخصائص التي طبعها بها.

1 محمد رضا الشيباني، مرجع مذكور، ص. 152.

البليوغرافيا

1. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ط. 4، دار الثقافة، بيروت، 1987.
2. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966.
3. ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، قطعة حققها ونشرها أحمد مختار عبادي في: صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 13، 1965-1966، 7-126.
4. ابن جليل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، ط. 2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985.
5. ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1986.
6. ابن حيان، المقتبس، الجزء الخامس، تحقيق شالميتا وكورنيطي وصبح، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، 1979.
7. ابن سبعين، رسائل ابن سبعين، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت.
8. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1978.
9. أبو ريان محمد علي، تصنيف العلوم بين الفارابي وابن خلدون، مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع، العدد الأول، أبريل، مايو، يونيو، 1978، 97-123.
10. آل سلمان، مشهور بن حسن، كتب حذر منها العلماء، دار الصميعة، بيروت، 1995.
11. ألدوميلي، العلم عند العرب وأثره في التطور العالمي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ويوسف محمد موسى، دار القلم، دمشق، 1962.
12. ألوزاد، محمد، نشأة الفكر الفلسفي بالأندلس: تمهيد لدراسة العقلية الإسلامية في المغرب، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا تحت إشراف علي سامي النشار (مرقونة) جامعة محمد الخامس، الرباط. 1979، 1980.
13. بالنثيا أنخيل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955.
14. بدر أحمد، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها منذ الفتح حتى الخلافة، مكتبة أطلس، دمشق، 1972.
15. الجميل ميخائيل، المجريطي ونظريته في الطبيعيات، ضمن مجلة آفاق عربية، عدد 11، تموز 1976، 82-93.
16. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح وتعليق محمد شرف الدين يالتقيا ورفعته بليكة الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
17. الحايك سيمون، تعريب وتعريب أو نقل الحضارة العربية على الغرب، المطبعة البولسية، بيروت، 1987.
18. الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966.
19. الرسالة الجامعة المنسوبة للحكيم المجريطي، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1951.
20. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1984.

21. سوادى، عبد محمد، عباس بن فرناس من رواد الفكر العربي بالأندلس، مجلة عالم الفكر، ع. 4، أبريل 1987، 153-171.
22. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، نشرة الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912.
23. الصراف، عبد الرحمان عبد الله، العالم المجريطي : جدلية الزمان والمكان، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، عدد 24، كانون أول 2015، 520-531.
24. عنان عبد الله، دولة الإسلام بالأندلس، المؤسسة السعودية، القاهرة، 1982.
25. الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968.
26. فياض، محمد، جابر بن حيان وخلفاؤه، سلسلة اقرأ، ع. 21، دار المعارف، القاهرة، 1956.
27. قنواقي، جورج، الخيمياء العربية، ضمن: موسوعة تاريخ العلوم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، الجزء الثالث، 1089-1127.
28. كامل، حسين محمد، في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر، القاهرة، 1963.
29. لوري بيار، هنري كوربان والخيمياء الروحانية، ترجمة خيرى شعراوي، مجلة المحجة، العدد 7، صيف 2003-1423، 215-234.
30. المجريطي، غاية الحكيم وأحق النتيجة بالتقديم، تحقيق ه. ريتير Glastonbury book، 2007.
31. محسن، جمال الدين، عباس بن فرناس أول رائد أندلسي للطيران، مجلة المورد، ع. 4، أكتوبر 1977، 92-98.
32. المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
33. مكي، محمود علي، التشيع في الأندلس، ضمن صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثاني، ع. 1-2، 1954، 93-149.
34. الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.
35. يفوت، سالم، العلوم في الأندلس وخلفياتها، ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع. 13، 1987، 21-58.

1. Alexandrin, *Histoire de la Philosophie occulte*, Payot, Paris, 2008.
2. Braesch, Suzel Fuzeau, *L'astrologie*, PUF, Paris, 1992.
3. Eco, Umberto, *Les limites de L'interprétation*, Trad. de L'Italien par Myriem Bouzahr, Éditions Grasset, 1992.
4. Faivre, Antoine, *L'ésotérisme*, PUF, Paris, 1992.
5. Leclerc, Lucien, *Histoire de la médecine arabe*, T.I, Rabat, 1980.

RIVAGES

Revue scientifique à comité de lecture

N° 3-2019

Revue semestrielle, scientifique à comité de lecture, éditée par la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Cadi Ayyad – Marrakech - Maroc

Directeur

Doyen de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Abderrahim BENALI

Coordination générale

Jamal RACHAK

Comité Scientifique

GRAVARI BARBAS Maria, IREST, Université Paris 1 Panthéon-Sorbonne, France, **ELLOUMI Mohamed**, INRAT, Tunisie, **LAOUINA Abdellah**, CERGéo, Université Mohamed V Rabat, **DEBARBIEUX Bernard**, Université de Genève, Suisse, **NAVARRO PALAZON Julio**, Escuela de Estudios Arabes des Granada, CSIC, Espagne, **SKOUNTI Ahmed**, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, Rabat, **GIRAUT Frédéric**, Département de Géographie, Université de Genève, Suisse, **HERNANDEZ ARMENTEROS Salvador**, Universidad de Granada, Espagne, **BOUBRIK Rahal**, Département de Sociologie, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Mohamed V de Rabat, **TOZY Mohamed**, UMRVIP et Sciences po, Aix en Provence, France, **PULVAR Olivier**, Université Antilles-Guyane, Centre de Recherche sur les Pouvoirs Locaux dans la Caraïbe – CNRS UMR 8053, **HILLALI Mimoun**, Institut Supérieur International de Tourisme, Tanger, Maroc, **PERALDI Michel**, directeur de recherche au CNRS et Centre Jacques Berque pour le développement des Sciences Sociales à Rabat (Maroc), **BOUMAZA Nadir**, Université Pierre MENDES France- Grenoble 2, **LANDEL Pierre – Antoine**, CERMOSEM, UJF, Mirabel – France, **PECQUEUR Bernard**, Institut de Géographie Alpine, PACTE (UMR CNRS 5194 – Université J. Fourier, Grenoble – France).

Comité de Rédaction :

Abderrahim BENALI - Jamal RACHAK - Khadija ZAHI- Mohamed MOUHOUB
Said BOUJROUF - Tourya BOURKANE.

Adresse

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, B.P. 3737
Amerchich – Marrakech 40000 Maroc
Site web. <http://www.flm.uca.ma.ac> - Email : revueflm@gmail.com
Tél. 00212524302742 - Fax 00212524302039

Dépôt Légal : 2018PE0010

ISSN : 2605-6410

Le tableau en couverture est de l'artiste peintre Mahi Binebine.

Les contenus des textes publiés dans la revue n'engagent que leurs auteurs.



جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

Revue des Sciences Humaines

RIVAGES

Revue scientifique à comité de lecture



N° 3 - 2019